أدب الحرب

نيران أكتوبر



فتحي رزق

نيران أكتوبر

رئيس مجلس الإدارة :
ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :
جمال الغيطانى

مدير التحرير
سعيد عبد الفتاح

الغلاف
والتصميم الجرافيكى
للفنان : محمود الهندى

الغلاف والاخراج الفنى : اميمة على احمد

نيران أكتوبر

فتحي رزق

● الاهـــداء

الى ابناء مصر الخالدة .. الذين قدموا الأرواح والدماء ، دفاعا عن ارض الوطن .. ليعبروا به من ظلام الهزيمة الى شمس الانتصـــــار .

الى رجال جيش مصـــر العظيم .. الذين استردوا الارض المقدسة .. من ايدى الفزاة الصهاينة .. فازالوا عار الهزيمة .. وزرعوا الامل والحياة من جديد فى سيناء وقناة السويس .. الارض والبشـــر ..

اليهم جميعا اهدى هذه السطور ..

فتحى رزق

● المقدمـــة

قبل الطلقة الأولى :

قال حكماء المصـــــريين قديما ونقل عنهم حكماء الصين فيما بعد .. لابد أن تعرف كل شيء عن قوة عدوك قبل أن تحاربه .. فاذا عرفت حجم ومصادر قوته تماما فقد كسبت المعركة معه بنسبة ٥٠٪ قبل ان تبدأ ، واذا عرفت قوته واستعددت لمواجهة هذه القوة بالقوات والخطط العسكرية المناسبة فقد كسبت ٧٥٪ من الحرب قبل ان تبدأ الضربة الأولى .

وهذا ما حدث تماما من جانب القيادة العسكرية فى مصر . فقد نفذت هذه الاستراتيجية بصورة رائعة حتى اللحظة الأخيرة السابقة على الطلقة الأولى فى حرب أكتوبر .

فعندما صمتت المدافع بعد حرب الاستنزاف .. كان هناك تساؤل ملح أمام القيادة المصرية .. ما هى الخطوة الثانية ؟ . كانت كل الشواهد تؤكد ان العدو الاســــرائيلى مازال غير قادر على استيعاب الحقائق التى أكدتها الأحداث خلال مراحل الصمود فيما

بين يونيو ١٩٦٧ وحتى اغسطس ١٩٦٨ والردع أو الدفاع الوقائى النشـــــط فيما بين سبتمبر ١٩٦٨ وحتى فبراير ١٩٦٩ ومرحلة الاســـــتنزاف فيما بين الثامن من مارس ١٩٦٩ وحتى الثانى من اغسطس ١٩٧٠ .

كان رأى القيادة المصرية أن المراحل السابقة للصراع مع العدو منذ عام ١٩٦٧ قد حققت اهدافها تماما وفى مقدمتها استنزافا قوة العدو ماديا وبشريا ومعنويا ، وعدم اعطائه الفرصة للعيش هادئا على الأرض التى احتلها غداة حرب الأيام الستة . كما كانت هذه المراحل تدريبا واقعيا راقيا على القتال فى مسرح العمليات ، واخـــــيرا وهو الأهم اقناع العــــالم واســـرائيل على وجه الخصوص ان مصر لن تسكت على احتلال ترابها ، وأنها عاقدة العزم على تحرير أرضها بقوة السلاح اذا لم تذعن اسرائيل لجهود الحل السلمى التى تستهدف جلاء القوات الاسرائيلية عن سيناء .

وكانت القيادة المصرية ترى أن الخطوة القادمة لابد أن تكون تحرير الأرض مهما كانت التضحيات وطرد العدو منها واعادة سيناء الأسيرة الى الوطن الأم مصر .

الصورة فى مسرح الحرب

كانت الصورة الواقعية لمسرح الحرب فى جبهة قناة السويس تجعل القيام بمعركة قوية وسريعة ومفاجئة ضد عدونا الصهيونى تبدو شديدة الصعوبة .. بل ومستحيلة فى رأى خبراء الحرب الذين كانوا يتابعون مراحل الصراع العسكرى فيما بين عام ١٩٦٧ وحتى أسابيع قليلة قبل اندلاع الحرب في أكتوبر ١٩٧٣ .

كانت هناك من الصعاب والعراقيل الجغرافية وغيرها فى مسرح المواجهة القادمة ما يجعل أصحاب هذا الرأى على حق فى تقديراتهم .. غير أن هناك رأيا آخر يرى أنه لا يوجد خط دفاع عسكرى لا يمكن اختراقه مهما كانت استعداداته الدفاعية وتحصيناته وأسلحته وأنه اذا توفر التخطيط الجيد الذى يعتمد على معرفة كل امكانيات وقدرات العدو الدفاعية والهجومية والتنفيذ الدقيق الذى يعتمد على المفاجأة وسرعة الحركة والهجوم الشامل الصاعق الذى تتكون عناصره من المقاتل المدرب تدريبا عاليا .. والذى تتوفر لديه الجرأة والشجاعة والقدرة على الاقتحام والمعنويات المرتفعة والدافع القوى للقتال ، وبعد ذلك كله توفر السلاح المناسب .. ثم اختيار توقيت المعركة .. الوقت المناسب .. كل عناصر آلة الحرب .

ومن هنا قررت القيادة المصـــــرية التغلب على كل أنواع الصعاب والعراقيل لكى تعد مســـــرح العمليات للحرب القادمة لا محالة مع العدو .

عـــــراقيل بالجمــــــلة

كانت أولى هذه العراقيل هذا المانع المائى الكبير المتمثل فى قناة الســـــويس .. حيث ينحدر الشاطىء بشدة ويغطى بستائر أسمنتية وحديدية تعرقل نزول وصعود المركبات البرمائية .. أيضا كانت ظاهرة المد والجزر بالقناة وما يتبعها من انخفاض وارتفاع فى منسوب المياه بها الى ٦٠ سنتمترا تقريبا ..بل ويصل قرب مدينة السويس الى مترين كاملين بالاضافة الى ســـــرعة التيار وتغيير اتجاهاته .. والذى يصل الى ٩٠ مترا فى الدقيقة فى القطاع الجنوبى وينخفض الى ١٨ مترا فى القطاع الشمالى .. بينما يتراوح عرض القناة بين ١٨٠ مترا و ٢٢٠ مترا وبعمق من ١٦ — ١٨ مترا ،

فى الوقت الذى ينخفض فيه سطح الماء عن حافة الشـــاطىء بحوالى مترين ..

بالاضافة الى وجود كميات كبيرة من الأتربة الناتجة عن حفر القناة على الضفة الشرقية للقناة مما يصعب عملية فتح ممرات فيها ، خاصة بعد أن قامت القوات الاسرائيلية بتعلية هذه الأتربة حتى جعلت منها ساترا بلغ فى بعض المناطق عشرين مترا ، ولم تكتف برفع الساتر فقط .. بل وازاحته حتى لامس حافة القناة تماما بزاوية ميل تزيد على ٤٥ درجة .

وكانت ثانية العراقيل هذا الخط الدفاعى المنيع الذى اقامه العدو داخل الساتر الرملى وفوق قمته والمسمى (بخط بارليف) .. وهو الخط الثانى الذى اقامه بعد أن دمرت قواتنا الخط الأول فى بداية حرب الاستنزاف فيما بين ٨ مارس ١٩٦٩ وحتى ٢ أغسطس ١٩٧٠ .

وقد أقام العدو منطقة دفاعية تمتد من هذا الخط على طول المواجهة وبعمق يصل الى ٣٥ كم فى سيناء .. وتحتوى هذه المنطقة الدفاعية التى تبلغ مساحتها اكثر من خمسة آلاف كيلومتر مربع على نظام متكامل من التحصينات الهندسية والسواتر الصناعية والمواقع القوية وحقول الالغام المضادة للدبابات والأفراد .. وتتمركز قوات العدو المدرعة ومشاته الميكانيكية ومدفعيته وقوات دفاعه الجوى فى تلك المنطقة الدفاعية الحصينة .

خـــط بارليـــف

ويتكون خط بارليف من ٢٢ موقعا حصينا يضم ٣١ نقطة قوية تبلغ مساحة كل منها حوالى ٤ آلاف متر مربع ، وهى عبارة عن منشأة هندسية معقدة تتكون من عدة طوابق تحت الأرض ويتكون

الطابق الواحد من عدة دشم من الاسمنت المسلح المقوى بقضبان السكك الحديدية والواح الصلب ، وقد جهزت كل دشمة بعدة فتحات تمكنها من الاشتباك فى جميع الاتجاهات بالاضافة الى الدشم المجهزة للدبابات والمدفعيات .. وتحيط بالنقطة القوية نطاقات كثيفة من الاسلاك الشائكة وحقول الالغام المضادة للدبابات والأفراد ..

كما جهز العدو بعض النقط الحصينة بخزانات لمواد حارقة تخرج منها مواسير الى القناة عند فتحها تغطى سطح مياه القناة بلهب حارق تصل درجة حرارته الى ٧٠٠ درجة مئوية .
والى الخلف من خط بارليف انشأ العدو خطا دفاعيا ثانيا يبعد عن خط بارليف بحوالى ٣٠٠ ــ ٥٠٠ متر ويتركز فى الاتجاهات الأكثر صلاحية للعبور .. ومجهزا لاحتلاله بالقوات المدرعة الموجودة على الاجناب والمؤخرة ، وهذا الخط روعى فى بنائه أن يكون شبيها بالخط الأول .

وعلى مسافة ٣ ــ ٥ كيلو مترات يقع خط الدفاع الثالث والذى يتركز فى بعض الاتجاهات الهامة وعلى اجناب الطرق الرئيسية المؤدية الى العمق .

وكان الخط الدفاعى الاسرائيلى الحصين بما انتجه من مشاكل وعقبات موضع دراسة مستفيضة من القيادة المصرية وبرزت الحلول التالية :

● لكى تؤمن مجموعات الاقتحام الاولى من نيران العدو والمصوبة برشاشاته ومدفعيته ودباباته والتى ضبطت مراميها لتغطى سطح القناة بستارة من نيران متشابكة .. وضعت خطة محكمة للمدفعية المصرية واسلحة الرمى الأخرى لتنفيذ أقوى تمهيد نيرانى لتدمير مصادر نيران العدو قبل البدء فى العبور ، وعمل ستارة نيران

قوية تعبر تحتها طلائع العبور الأولى لفتح ممرات فى الساتر الترابى على الضفة الشرقية للقناة ، وقد أجريت أكثر من ٣٠٠ تجربة لاختيار انسب الوسائل لفتح الممرات .. وكانت مدافع المياه هى الوسيلة التى ابتكرتها العقول المصرية ، وتعتمد على تجريف المياه بوساطة مضخات مياه قوية لامكان فتح ٨٥ ممرا فى الساتر الترابى ، يبلغ حجم الاتربة المزاحة من كل ممر ١٥٠٠ متر مكعب ..

● لارتقاء الساتر الترابى بانحداره الرهيب بواسطةمجموعات الاقتحام بأسلحتهم وذخائرهم فقد أعدت سلالم من الحبال تحمل بوساطة أحد الأفراد يتسلق بها الساتر ثم يفردها ليتسلق عليها زملاؤه..

● لتفادى اشعال العدو لسطح القناة جهزت مجموعات من الصاعقة للعبور الى الضفة الشرقية قبل بدء الهجوم وقفل مواسير النيران بالأسمنت .

وأخيرا وهو الأهم كانت مشكلة قتال رجال المجموعات الأولى للعبور ضد دبابات العدو وعرباته المدرعة فى منطقة دفاعه الحصينةمنذ الدقائق الأولى للعبور وحتى تلحق بهم القوات الرئيسية بعد اقامة الكبارى على سطح القناة .. ووضعت الخطط التالية :

ـ تم تجهيز مجموعات كبيرة من الهيئات الحاكمة فى الضفة الشرقية للقناة ، تحتلها الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات لتشتبك بالضرب المباشر من الضفة الغربية مع دبابات العدو وعرباته المدرعة فى الضفة الشرقية .

ـ تسليح رجال مجموعات العبور الأولى بمزيد من الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات خاصة الصواريخ الخفيفة المضادة

للدبابات :: وظهرت عربات يد صغيرة تجر بالأيدى تحمل عليها الذخيرة والأسلحة تعبر مع مجموعات الاقتحام الأولى وجهز ٢٥٠٠ قارب لتعبر عليها الموجات الأولى من الاقتحام حتى تقام الكبارى .

وكان تجهيز مســـرح العمليات هو الآخر يضـــم كما كثيرا من المشاكل والصعوبات .

فقد كان لزاما أن يقام على الضفة الشرقية للقناة ساتر ترابى لتوفير الوقاية لقواتنا أثناء اعدادها وتدريباتها ، خاصة فى المراحل الأخيرة مثل الاستعداد للهجوم ، ولاعطاء القوات على طول الجبهة القدرة على المناورة ثم تجهيز شـــــبكة من الطرق والمدقات يبلغ طولها أكثر من الفى كيلو متر .

وكان تجهيز ساحات الاسقاط لوحدات الكبارى على الضفة الغربية للقناة ، والمنازل اللازمة لاستخدام المعدات بطرق ووسائل لا يكتشف منها العدو خططنا ، وفى نفس الوقت لا تمكنه من التدخل فى اللحظات الحاسمة .

أيضا تجهيز المواقع الحاكمة التى تحتلها الدبابات والأسلحة الثقيلة المعاونة بنيرانها المباشرة لمجموعات الاقتحام الأولى .

ولمواجهة اعمال العدو المنتظرة ضد مطاراتنا وخاصة الممرات .. فقد أعدت خلطة مناسبة من الأسفلت والأسمنت سريع التصلب لرصف أى مساحات ينجح العدو فى تدميرها .. كما شكلت وحدات هندسية للتعامل مع القنابل الزمنية الخاصة بالممرات .. فى نفس الوقت كان العمل مستمرا فى اقامة التحصينات الخاصة بالطائرات (دشم الطائرات) كما اقيمت شبكة ممرات تبادلية بكل مطار وقاعدة جوية تمكنها من العمل تحت كل الظروف .

ملحمة بنــاء الصــواريخ

كانت ملحمة بناء قواعد الصواريخ المصرية قمة التحدى بيننا وبين العدو .. بدأ العمل المكثف بها فى يناير ١٩٧٠ ، واستمر ليلا ونهارا تحت قصــف العدو المكثف ، وكانت تلك ملحمة فريدة من التضحية والفداء اشــترك فيها عشــرات الالوف من أبناء مصــر من مهندسينا العســكريين والشــركات المدنية المختلفة بأفرادهامن الرجال والنساء وحتى الأطفال ، ولقد بلغت تكلفة اقامة شبكة الصواريخ أكثر من مائة مليون من الجنيهات ، وبحجم وصل الى ٢٤ مليون من الامتار المكعبة من أعمال الحفر والردم ، وخرسانة مسلحة وعادية بحجم ٢,٥ مليون متر مكعب ، وكمية من الحجارة بحجم ٢ مليون متر مكعب .

عندما صمتت المدافع بعد مرحلة مرهقة من الصراع مع العدو استمرت ٣ سنوات متصلة قضــاها رجالنا فى الخنادق وعندما بدأت الاستعدادات لمعركة التحرير الكبرى ، كانت المشــكلة الرئيسية أمام القيادة مواجهة (مرض الخنادق) الذى يصيب أى قوات تتعرض للظروف التى عاشتها قواتنا وبدأت المواجهة بخطط مدروسة اعتمدت على التوعية المستمرة بمشروعية القتال لتحرير الأرض والثقة فى السلاح .. ثم كان العنصر الأهم وهو التدريب القتالى الواقعى على مهام لها نفس طبيعة المهام القتالية المقبلة .

وكانت هناك مشكلة رئيسية وضعت فى المقدمة منذ البداية وصــاحبت كل مراحل الاعداد وهى ، كيف تتحقق المفاجأة على المســتويات الاستراتيجية والتكتيكية فى مواجهة عدو يملك كل الامكانات الحديثة للاســتطلاع والمراقبة وتوفر له حليفته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية كل سبل المعلومات الدقيقة المباشرة ..

بالاضافة الى الاتصال الدائم بين قواتنا والعدو حيث لا يفصل بينهما سوى قناة السويس واعمال وتحركات كل جانب مكشوفة للجانب الآخر تماما ..

الخـــــداع

وتلك قصة طويلة لابد من سرد بعض وقائعها :

على صعيد الخداع الاستراتيجى .. فقد وضعت خطة محكمة شاركت فيها جميع أجهزة الدولة خاصة وزارات الدفاع والخارجية والاعلام بهدف خداع العدو وتضليله عن نوايا شن عملية هجومية مع الاحتفاظ بالســـرية الكاملة لخطط العمليات واخفاء التوقيتات المحددة للحرب .

ولاشك أن اجراءات الخداع العسكرى كانت أهم مقومات الخداع الاستراتيجى حيث اعتمدت على :

* العمل المستمر فى استكمال الأوضاع الدفاعية استعدادا لأى هجوم منالعدو ..

* دفع وتجميع القوات الرئيسية القائمة بالهجوم عن طريق التحريك فى اتجاهات متعددة منها ما هو عرضى وما هو عكسى لبلبلة العدو الذى يرصد كل صغيرة وكبيرة .. ونفس الأسلوب تم مع معدات العبور ، وتم ذلك أكثر من مرة تحت اجراء مناورات دورية ، كان آخرها المناورة التى قامت العمليات خلالها ..

* اجراء عدة تجارب لاستدعاء الاحتياط بحيث يتم أضخمها فى التوقيت المحدد لتنفيذ الهجوم .

* كذلك اعتمدت المفاجأة على تحديد دقيق بعد دراسات علمية عن أنسب التوقيتات لتنفيذ العملية الهجومية سواء للشهر أو لليوم أو ساعة بدء الهجوم أى ساعة الصفر .

* أيضا اعتمدت المفاجأة على السرية الكاملة لتوقيت بدء الهجوم وابلاغه للمستويات القيادية المختلفة فى توقيتات لا تسمح بأدنى فرصة لتسرب أى معلومات عنه .

* ثم كان أهم عنصر فى تحقيق المفاجأة الاستراتيجية وهو التنسيق الدقيق مع الجبهة السورية لتبدأ عمليات الجبهتين فى وقت واحـــــد ..

وبدأ العد التنازلى قبل اندلاع الحرب بـــ ٢٤ ساعة .

بدأت قواتنا المسلحة طبقا لخطة علمية دقيقة فى عملية فتح تعبوى استعدادا لاتخاذ أوضاع الهجوم .. وشملت عملية الفتح التعبوى القوات الجوية والبحـــرية وقوات الدفاع الجوى وقوات الجيشين الثانى والثالث الميدانيين .

المدافع فى الوقت المناسب

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم الأول من أكتوبر ١٩٧٣ رفعت درجة استعداد القوات المسلحة الىالحالة الكاملة ، حيث تم احتلال جميع مراكز القيادة والسيطرة على مختلف المستويات تحت ستار اجراءات المناورة التى تقوم بها القوات .

وبدأت القوات المختلفة تأخذ أماكنها التى ستكون عليها مع بدء العملية الهجومية .. كما قامت قوات المهندسين العسكريين بفتح الثغرات فى مواقعنا على الضفة الغربية للقناة ..

وعبرت مجموعات خاصة الى الضفة الشرقية للقناة حيث نجحت فى تعطيل مواسير المواد الحارقة التى أعدها العدو لاشعال سطح القناة .

وفى مركز العمليات الرئيسى للقوات المسلحة نشـــرت خرائط ووثائق العملية الهجومية .. وتوالت الســـاعات والدقائق والثوانى .

ثم كانت اللحظة التى انتظرتها مصر طويلا لكى تبدأ واحدة من أعظم حروب التحرير فى تاريخ مصر الحديث .. وأروع معارك العسكرية المصرية .. حيث انطلقت المدافع فى الوقت المناسب تماما ..

المؤلف

اكتوبر ١٩٧٤

الفصـــــل الاول

العبور العظيم والخداع النادر

لم تكن البداية فى حرب اكتوبر ، فى لحظة الصفر المحددة والمعروفة فيما بعد الساعة الثانية و ٥ دقائق من بعد ظهر اليوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .. انما بدأت قبل ذلك بسنوات .. بل انها تعود الى نقطة النهاية فى حرب يونيو ١٩٦٧ .. التى كانت بمثابة نقطة البداية فى حرب الصمود المصرية الرائعة (١٩٦٧ — ١٩٦٨) ثم حرب الدفاع النشيط والوقائى (خريف ١٩٦٨) .. وحرب الاستنزاف العظيمة (٨ مارس ١٩٦٩ — ٨ اغسطس ١٩٧٠) .

انه صراع عسكرى وسياسى شاق وطويل ، وحرب شرسة على كل الجبهات .. اكثرها شراسة الحرب السرية .. حرب الدهاء .. حيث تمكنت مصر ان تكسب هذه الحرب ، وأن تسقط اسرائيل فى مصيدة (الخداع النادر خلال الـ ٢٤٠ يوما السابقة على اندلاع حرب اكتوبر (فبراير — اكتوبر ١٩٧٣) .. وكسبت مصر معركة الخداع النادر قبل أن تطلق مدافع الحرب التحريرية الكبرى .. ومن ثم كانت معركة العبور العظيم محسومة لصالح العقل المصرى والجيوش المصرية ..

وأجمعت كل الدراسات على ان مصر نفذت خطتها لاكتساح خط الدفاع الاسرائيلى والتقدم الى داخل سيناء وضرب الجيش الاسرائيلى الذى كان يعيش فى وهم كبير بأن مصر

لن تستطيع عبور القناة ، واذا حاولت العبور فانها ستدفع ثمنا غاليا وسوف يغرق الجيش فى قناة السويس ولن يتقدم خطوة واحدة داخل سيناء .

كانت الخطة المصرية على درجة عالية من الكفاءة والقدرة والدهاء .. بل والخداع النادر .. كانت اسرائيل تعرف لكنها لم تصدق ، وكانت أمريكا تعرف ولكنها أيضـــا لم تصدق ، انهم رأوا كل شىء ولم يفهموا .

قبـــــل الزلزال

فقبل زلزال اكتوبر باكثر من ١٧٠ يوما وفى النصف الثانى من ابريل ١٩٧٣ كانت المعلومات قد بدأت تتدفق الى اســـرائيل كلها تتحدث عن الاستعداد المصرى لشن حرب سريعة ضد اسرائيل فى سيناء .

المخابرات الاسرائيلية ابلغت الحكومة بتحركات غير عادية وضخمة تشارك فيها المدرعات والمشاة بينما كانت القوات المسلحة المصرية قد وضعت منذ قليل فى حالة التأهب القصوى .

المثير حقا أنه منذ الأسبوع الأخير من أبريل ١٩٧٣ لم يكن يمر يوم الا وتنشر فيه الصحف العالمية خبرا وتحليلا يدور حول احتمالات نشوب معركة وشيكة وقاسية بين مصر واسرائيل .

على المستوى السياسى كان اكثر مؤشراتها وضوحا للعيان، مؤتمر القاهرة الذى اشترك فيه السادات والأسد وحسين والذى أسفر عن استئناف العلاقات بين مصر والأردن ، وهذا الاجراء الذى لم يكن له سوى مبرر آخر سوى رغبة الرئيس السادات فى خلق جبهة عربية موحدة بمجرد نشوب القتال .

كان بالامكان ملاحظة المشاورات المستمرة بين القاهرة ودمشق ، والجولة التىقام بها الرئيس المصرى فى دول الخليج للتأكد من استعدادها لتقديم العون فى المعركة الوشيكة وذلك الى جانب تلك الجولات المنتظمة التى قام بها المبعوثون المصريون فى جميع أنحاء العالم بهدف تهيئة الرأى العام العالمى للحدث الكبير القادم .

وفى اسرائيل ظل المسئولون هناك ينظرون الى تلك المعلومات التى أخذت وكالات الأنباء تتناقلها عن تحركات الجيش المصرى وعن احتمالات نشوب الحرب فى منطقة الشرق الأوسط على أنها مجرد محاولات للضغط على اسرائيل ، وكان انطباعهم فى تل أبيب أنه اذا ما حاول المصريون على أسوأ التقديرات أن يعبروا القناة فى نقطة منها فى محاولة لاقامة رأس جسر على الضفة الشرقية لها ، فان اعادتهم الى رشدهم فى هذه الحالة لن يستدعى جهدا يذكر من قبل جيش الدماع الاسرائيلى .

وفسر أحد كتاب الغرب وهو الكاتب جون بريك هذا الموقف الاسرائيلى بقوله : كان الاسرائيليون والأمريكيون كذلك يعرفون ما يجرى على الجبهتين المصرية والسورية ، فقد كان واضحا أن الجيش المصرى يستعد للحرب ، ولكنهم « رأوا ولم يفهموا » ، ذلك لأن المصريين كانوا يقومون بمناورات ضخمة وعلى نطاق واسع منذ أول شهر أكتوبر ١٩٧٣ ، وقد اعتبرت كل من الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل أن القيام بهذه المناورات فى الوقت الذى كان فيه السوريون يوزعون فيه قواتهم على الجولان مجرد مصادفة .

والواقع أنه من النادر أن تخدع دولة بسبب مفاهيمها الخاصة بما حدث لإسرائيل فى ١٩٧٣ ، إذا أنه يصبعب علينا أن ندرك كيف

اصيبت اسرائيل بالعمى الى الحد الذى تعذر عليها فيه رؤية ما هو واضح جلى ، ذلك ان التحركات العسكرية المصرية قد جاءت فى أعقاب سلسلة طويلة من المؤشرات السياسية التى تسير فى اتجاه الحـــرب .

الخـــداع النـــادر

لقد كانت الخدعة من جانب مصر محكمة الى حد انه حتى فى يوم الغفران ذاته ، عندما صدرت الأوامر العاجلة بالتأهب والتعبئة لم يكن كل من «جولدا مائير ، و موشيه ديان » ، و « دافيد اليعازر » يؤمنون حقا بأن حربا شاملة تقترب ، بل لم يقدروا ابعادها بشكل صحيح ، فان موشيه ديان لم يكن يعتقد بامكانية اندلاع حرب ضد العرب فى المستقبل المنظور ، كما كان يعتقد من جهة أخرى بأنه فى حالة نشوب القتال على احدى الجبهتين ، المصرية أو السورية أو فى كلتيهما معا ، فان جيش السوبرمان قادر على ســــحق العدو فى سهولة وبسر .

كان مثله فى ذلك مثل كثيرين آخرين فى اسرائيل من بين مروجى أسطورة الجيش الاسرائيلى القادر على تنفيذ كل خطة مهما كان حجمها بكفاءة تامة ، لذلك يقول الاسرائيليون بعد الحرب ، ان وزير دفاعهم تلقى صدمة صاعقة يوم السادس من اكتوبر عندما اجتاحت جيوش مصر وسوريا خطوط وقف اطلاق النار ، كان الأمر يجسد قصورا شاملا لنظريات « ديان » ورؤيته لأبعاد الصراع فى ذلك الوقت ، فقد اندلعت الحرب بصورة لم يتوقعها فى توقيت لم يتوقعه وبأبعاد لم يتوقعها .

وهكذا ســـــادت أوساط الحكومة والمؤسسة العسكرية فى اسرائيلبل فى انحاء كثيرة من العالم كذلك قبيل حرب اكتوبر ، تلك

الطمأنينة التى غذتها خطة الخداع المصرية والتى قادت الجميع واسرائيل على وجه الخصوص من اتجاه (المصيدة) ، والتى نتجت بنفس القدر عن الافتراض الاسرائيلى بالعجز العربى المتوهم عن استيعاب أساليب القتال وفن الحرب ، والذى تجسدت صورته فى أعقاب رحيل المستشارين السوفييت عن مصر ، الأمر الذى دفع بالمخابرات الاسـرائيلية التى تحرس ولا تنام على حد تعبير بن جوريون ، الى قيامها باقناع المخـابرات الامريكية المركزية بنفس معتقداتها الخاطئة فى أن القوات المصرية غير قادرة على شـن الحرب فى المدى القريب ، وبذلك وقعت اسـرائيل للمرة الأولى والحاسمة فيما أطلق عليه الاسرائيليون « مصيدة الحمقى » .

جنـود النيـل

حل شهر اكتوبر من العام السادس لما بعد الهزيمة للعرب فى حرب الأيام الستة ، رمال سيناء تترامى الى مالا نهاية على امتداد البصر على جبهة القتال ، بينما وحدات الجيش المصرى على الضفة الغربية للقناة تقوم باجراء احدى مناوراتها التى لا تنتهى .

عيون اسرائيل تترقب فى ضجر جنود النيل الذين يروحون ويغدون فى تجمعات وطوابير اعتـاد جنود خط بارليف على مشاهدتها حتى أصبحت تجلب النعاس الى أجفانهم المثقلة برمال سيناء ويبدو أن القيادة المصرية أصبحت تتعمد أن تجد أى عمل لتلك القـوات حتى تؤديه ، وها هى قد أعلنت بالفعل عن بداية مناورات الخريف الكبرى .

هكذا قال الملازم « بارى » قائد احدى النقاط الحصينة بالخط لزميل له وهو يضع المنظار المكبر على عينيه فى اتجاه الضـفة الغربية للقناة أمامه ، ويجيبه زميله « نعم انها واحدة من سلسلة

المناورات المعتادة ، يبدو لى ان المصريين لايزالون على عهد أجدادهم الأوائل ، مغرمين باقامة الاهرامات ..

ويأتى يوم السادس من أكتوبر .. يوم جديد لايحمل جديدا لجنود اسرائيل المتخندقين جيدا داخل تحصيناتهم . وكانوا قد تلقوا فى فى اليوم السابق تحذيرات مختلفة سواء من رئاسة الأركان أو من الجنرال مندلر ، قائد المدرعات بجبهة سيناء من احتمال نشوب قتال على الجبهة المصرية كما كانت الحالة (ج) قد أعلنت بين الوحدات العاملة بالجيش الاسرائيلى ، وهى درجة من التأهب لم تعلن منذ انتهاء حرب الأيام الستة ، كذلك تم وضع سلاح الجو الاسرائيلى فى حالة التأهب القصوى منذ اليوم السابق ، الى جانب انذار القوات المدرعة بسيناء والغاء الاجازات وغير ذلك .

لقد تلقى الجميع فى سيناء تلك الاجراءات بسخرية « لن يحدث شىء ، لن يتحرك المصريون » .

على جانبى خط الموت

ساعة الصفر تقترب ، اللحظة الحاسمة تبدو قريبة المنال فلنحاول القاء نظرة شـــــاملة على ما كان يدور فى تلك اللحظات الحاسمة على كلا الجانبين للتل فى الجانب المصرى بالمقابل على الجانب الاسرائيلى .

ففى الوقت الذى كانت فيه عقارب الساعة تقترب من الواحدة ظهرا ، كان القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية قد أخذ مكانه فى غرفة العمليات التى كانت تعج بالخرائط من كل شكل ومقياس ،

وقد لطخت بالألوان المتعددة والشارات والاعلام الصغيرة والاسهم المتدرجة ، والتى توضح موقع كل تشكيل وهدفه المحدد بالدقة .

القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول احمد اسماعيل على، الفريق سعد الدين الشاذلى واللواء محمد عبد الغنى الجمسى حينئذ وغيرهم من كبار وقادة ، كل فى مكانه ، القادة الميدانيون يعطون اشارات تمام الاستعداد ، أصوات اللاسلكى تملأ المكان ، لقد بدأ العد التنازلى لساعة الصفر « ساعدهم يارب » هكذا كان القادة يبتهلون فى صمت الى الله ، وكانما كان قلب مصر كلها يخفق مع هؤلاء القادة الذين كانوا فى تلك اللحظـــــة يتحملون مصير أمة بأسرها .

وبينما كان القائد الأعلى يستعد لاعطاء اشـــارة البدء بتنفيذ العملية بدر ، كان العميد حسن أبو سعده قد أنتهى منذ قليل من اداء صلاة الظهر التى أتبعها بركعتين لله ثم جلس فى مركز قيادة متقدم ، يقلب فى الخرائط التى رآها من قبل مئات المرات ، حتى حفظ كل مليمتر فيها عن ظهر قلب ، كانت الصلاة فى أعماقه فى تلك اللحظات مستمرة كما يقول « لم تتوقف لحظة ولكنها كانت صلاة أخرى ، هى صلاة يمكن أن نسميها « صلاة المسئولية » لقائد وضعه القدر ومنحه شرف قيادة الفرقة الثانية فى معركة الوطن التى كانت على وشك البدء .

وفى الثانية بالضبط أعطى اللواء حسنى مبارك قائد السلاح الجوى اشارة البدء لتوجيه الضربة الجوية المركزة ضد أهداف العدو وســـــط سيناء ، ومراكز قيادته ونقط مراقبته ومحطات الشوشرة الالكترونية ، وشاهد جنود النيل المقاتلات المصـــــرية تندفع فى زئير يصم الآذان على ارتفاع قمم الأشجار فوق رؤوسهم عبر القناة متوغلة فى عمق سيناء .

تقـــارير الفجـــر

وعلى الجانب الآخر وفى فجر السادس من أكتوبر الموافق لعيد الغفران اليهودى ، عقدت الحكومة الاسرائيلية اجتماعا محددا تدم خلاله موشيه ديان وزير الدفاع تقريرا بأن هناك شيئا ما يجرى على الجبهتين المصرية واسورية ، ولكن الموقف ظل بالنســـــبة للحكومة الاسرائيلية بعيدا كل البعد ع نالوضوح .

فى الساعة الثانية بعد الظهر ببضع دقائق وصلت الى رئاسة الأركان الاسرائيلية التقارير الأولى المزعجة عن الضـــربة الجوية المركزة فى عمق سيناء والتحركات السورية المدرعة فى الجولان .

قفز كل من موشيه ديان ودافيد اليعازر من مقعديهما ليسرعا الى غرفة العمليات برئاسة الأركان ، وفى عصبية محمومة راح الاثنان يدرسان الخرائط التى لم تكن قد سجلت عليها بعد تحركات القوات المصرية والسورية فى تلك الساعة .

لقد كشف سلوك الجنرالين عن توترهما الشديد ، فقد كانا فى تلك اللحظات لايزالان تحت تأثير المعلومات التى وصلتهما من المخابرات الاسرائيلية منذ الصـــــباح الباكر والتى كانت تفيد بأن الحرب لن تندلع اذا نشبت أصلا قبل السادسة مساء .

فى مركز قيادة ســـيناء

داخل مقر قيادة سيناء حيث الجنرال شموئيل جونين قائد جبهة سيناء وضـــــابط أركانه ، كان جونين معررفا فى الجيش الاسرائيلى وهو من قادة المدرعات ، بالهدوء وبرود الأعصاب ، أما بعد الساعة الثانية من مساء يوم ٦ أكتوبر فقد اتسمت كافة تصرفاته بالعصبية والتوتر ، كان الرجل فى موقف لا يحسد عليه ، وقد قبع

فى مركز قيادته ، بينما مراكز السيطرة والانذار والشوشرة التابعة له قد أصيبت بالصمم والعمى والشلك نتيجة الضربة الجوية المصرية التى كانت بمثابة افتتاحية الحرب .

كان الجنرال قد وصل الى مقر قيادته بعد أن تلقى اشـــارة لاسلكية من القيادة العليا تفيد بأن الحرب تنشب فى السادسة من مساء نفس اليوم ، وأن المصريين قد يحاولون عبور القناة تحت ستر قيران المدفعية والطيران ..

يبادر جونين بالاتصال لاسلكيا بالجنرال مندلر قائد المدرعات بسيناء ليصيح فيه .. مندلر اعتقد أنه من الأفضل أن تقوم قواتك المدرعة فى اتجاه خط المياه استعدادا لاستقبال المصريين قبل حلول المســـــاء ..

وتجيئه اجابة مندلر الساخرة .. سيدى ان الوقت متأخر جدا لمثل هذه النصيحة ، ومن الواضح قطعا أننى قد تمت بذلك بالفعل منذ بضع دقائق ، لأن المصريين بدأوا فى قصف قواتى .

داخــــل اســـــرائيل

نحاول القاء نظرة خاطفة الآن على الجو الذى كان يسود اسرائيل فى تلك اللحظات الحاسمة . جنون العظمة لايزال مسيطرا على الصقور والساسة والشعب هناك ، عندما علم الاسرائيليون فى الصباح أن هناك شيئا ما يجرى على جبهتى القناة والجولان ، كانت تعليقاتهم كلها تنصب حول أن العرب ليسوا مجانين حتى يقاتلوننا وأن معـــــركة أخرى قد تدور حول القناة أو فى الجولان ولكنها لن تكون ذات تأثير يذكر علينا .

بعد اندلاع القتال فى الساعة الثانية وخمس دقائق بدأت اسرائيل فى اطلاق صفارات الانذار كما قامت الاذاعة باستئناف الارسال الذى كان متوقفا بسبب الاحتفال بعيد الغفران لتعلن عن هجوم مصرى على جبهة القناة ، وسورى على جبهة الجولان ، ثم بدأ المذيعون فى ترديد عبارات غامضة مثل « حلة اللحم » و «السيدة الساحرة » و « ذئب البحر » كل ربع ساعة ، كانت كل جملة من تلك العبارات تعنى قيام وحدة معينة فى الجيش بأخذ مواقعها فى منطقة محددة من قبل ، مع وضعها فى حالة التأهب القصوى .

فى تلك الأثناء لم يكن يسمع فى الشوارع والأتوبيسات والمقاهى والأماكن العامة والخاصة سوى جملة واحدة ، لقد استحق العرب مصيرهم ، لن يتعدى الأمر سوى النزهة المعتادة ، بل ربما سيكون هذه المرة أفضل منها عام ١٩٦٧ ، كان الاسرائيليون مهيئين تماما لتقبل مثل هذه الآمال المتفائلة وبخاصة بعد أن وعد رئيس أركانهم الشعب هناك فى اللحظات الأولى للحرب عبر الاذاعة بالحاق هزيمة مثيرة للعرب مستخدما تعبيرا عبريا مؤداه « سنحطم ضلوعهم » .

أما رئيس وزرائهم جولدا مائير فقد أعلنت للشعب « ان النصر لا يحتاج الى شهر ولا الى اسابيع ولا حتى أيام » ، وكان ذلك يؤكد للاسرائيليين ما أعلنه رئيس أركانهم من أن المعارك لن تستغرق أكثر من يومين على أكثر تقدير .

وهكذا نامت اسرائيل فى مساء السادس من أكتوبر وهى تتوقع بين لحظة وأخرى أن تعرف رسميا مدى ما حققته قواتها من انتصارات ساحقة ، دون أن ترتاب للحظة واحدة بأن ساعة انهيار كل من مصر وسوريا قد بدأت بالفعل .

ســـــيناء من جـــــديد

الجنرال جونين قائد سيناء الذى لم يكد ينتهى من تحذيره عديم الفائدة الى قائد مدرعاته حتى فتح الجحيم أبوابه ، والتعبير هنا له شخصيا ، اكثر من الفى مدفع ميدانى مصرى ثقيل تصب حممها على قصفات متتالية لمدة ٥٣ دقيقة على طول مواجهة القناة فوق خط بارليف وخلفه ، فى حشد وكثافة لم يشهدها التاريخ العسكرى من قبل ، ١٧٥ قذيفة تسقط فى الثانية الواحدة على الحصـــــون والقلاع والآليات المدرعة والدبابات الاسرائيلية لتحولها الى قطع من الخردة (وارد أمريكا) .

أكثر من ٢٢٠ طائرة مقاتلة/قاذفة تابعة لسلاح الجو المصرى تقتحم سماء سيناء كالصاعقة متجهة صوب أهدافها المحددة لتقصفها فى دقة بالغة حولت قيادات العدو وسط سيناء ومطاراته الأمامية ومراكز تشويشه الالكترونية الى أطلال خرساء .

المســـــدس والحصـــــار

وفى ذات الوقت يطلب الجنرال مندلر قائد المدرعات قائده جونين لاسلكيا ليصيح فيه . لقد حدثت فجوات واسعة وعديدة فى خطوطنا بالقطاعين الأوسط والجنوبى ، عشرات الدبابات المصرية تهاجمنا ، اننى أطلب النجدة فورا ، ســـــينهار القطاعان وتحدث الكارثة .

أما القطاع الشمالى لسيناء فلم يكن بأوفر منه حظا ، الجنرال ادان يصرخ هو الآخر فى عصبية بالغة ، عبر جهازه اللاسلكى فى الجنرال البائس جونين ، فرقة مصرية كاملة تهاجمنا ، وتأتيه اجابة، جونين على صورة سؤال .. اذن .. هل باستطاعتك صـــــد

الهجوم ؟ .. يجيبه الجنرال التعس .. ماذا تنتظر بحق السماء ، احضر لنجدتنا وتخليصنا من براثن المصريين ، لقد اقتحموا المواقع والحصون ويهاجموننا بعنف بالغ كلما حاولنا صد هجومهم يعودون من جديد ، الرصاص يدوى داخل الحصون لقد أصبحنا محاصرين .

بحاول جونين معاودة الاتصال بالجنرال مندلر الذى قاطعه قبل ان يبدأ كلامه صائحا .. ان الموقف خطير جدا ويحاول أن يسأله مرة أخرى ، وجاءته اجابة قائد المدرعات على الفور ، سيدى الجنرال ، لم يبق معى سوى مسدسى ولم تكن هذه نكتة ، كانت الجملة تمثل الحقيقة الى حد كبير .

اكاذيب ديـــــان

وفى نفس الوقت فى منتصف الساعة التاسعة من مساء اليوم الأول للحرب ، كانت الاذاعة الاسرائيلية تنقل الى الشـــــعب فى اسرائيل وقائع المؤتمر الصحفى الملتهب الذى عقده رئيس الأركان « دافيد اليعازر » واعلن فيه أمام المراسلين والصحفيين والشعب «سنحطم ضلوعهم» .. الجنود الاسرائيليون الذين استمعوا الى وقائع هذا المؤتمر أصيبوا بخيبة أمل شديدة ، اخذوا يتساءلون وهم محاصرون داخل حصونهم فى خط بارليف أو فارين فى اتجاه الشرق فى حالة شديدة من الذعر أو أرسرى فى أيدى المصريين :

ترى من الذى يحطم عظام الآخر ، ولماذا يكذب قادتنا علينا هكذا ؟! لقد بدأت اذاعةاسرائيل منذ تلكاللحظة وحتى نهاية الحرب تذيع الاكاذيب ، وهكذا كانت تلك البلاغات الاسرائيلية فى واقع الأمر امتدادا لاسطورة لم يعد لها وجود ، ويسرع المراسل العسكرى الاسرائيلى بربيا برفيل الى التوجه لمقر القيادة فى وسط ســـــيناء

بالجمجانة ليسجل انطباعات ومعلومات ضباط وجنود خط بارليف الفارين والذين تمكنوا من النجاة بجـــلدهم ، وقد علت القذارة والشحوب وجوههم الشاحبة .

أكتوبر بعيـــون اسرائيل

وسنرى الآن ما سجله المراسل العسكرى الاسرائيلى الوحيد الذى سمحت له القيادة بالتواجد فى منطقة القتال فى المرحلة الأولى للقتال ، حيث كتب بعد الحرب يقول :

ان القوات المصـــرية قد فاجأت الجنود الاســـرائيليين فى تحصيناتهم بخط بارليف فى الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر وليس فى السادسة مساء كما كانت القيادة الاسرائيلية تتوقع ، عدد من هؤلاء الجنود كانوا يغسلون ملابسهم ، والبعض الآخر يلعب مباريات فى كرة القدم ، وآخرون يصلون فى عيد كيبور .. وفجأة فتح نحو الفى مدفع مصرى النار كالجحيم ، اربعة قصفات مدفعية بالغة العنف انطلقت من افواه المواسير الضخمة من عيار ١٣٠ و ١٦٠ مم قبل أن تبدأ الموجة الأولى من الجنود المصريين هجومها على ثلاثة قطاعات فى وقت واحد ، القنطرة والاسماعيلية والسويس .

الاسرائيليون الذين سمرتهم نيران المدفعية المصرية الكاسحة فى مواقعهم الحصينة أصيبوا بدهشة بالغة عندما شاهدوا مئات القوارب المطاطية تجتاز مياه القناة وفى وضح النهار ، حاولوا على الفور استخدام سلاحهم السرى ، أى قذف آلاف الأطنان من المازوت الملتهب فوق مياه القناة ولكنهم أخفقوا لأن كل الأنابيب الممتدة تحت الأرض حتى القناة كان المصـــريون قد ابطلوا مفعولها منذ الليلة السابقة على الهجوم .

ومن الضفة الغربية انطلق آلاف الجنود المصريين من المشاة الذين كانوا يحملون فوق ظهورهم أنابيب وصناديق غريبة الشكل ، حقائب صغيرة تضم الصـــــواريخ المضادة للدبابات وطبقا للخطة المصرية الدقيقة لم تحاول هذه الدفعة الأولى من المشاة احتلال مواقع خط بارليف .. بل اجتازتها بسرعة للتقدم فى جراة بالغة لمواجهة الدبابات والمدفعية المتجولة الاسرائيلية .

كان هدف هذه العملية كما يقول الاسرائيليون ينحصــــــر فى تجميد وتحطيم الهجمات الاسرائيلية المضــــــادة الأولى بالصواريخ للدبابات الى ان تتم اقامة الجسور الثقيلة عبر القناة لعبور الدبابات وباقى المعدات الثقيلة .

يقول يوفيل ، وبذلك حققت الخطة المصــــرية الذكية نجاحا باهرا ، فعلى امتداد ١٨٠ كم تمثل طول القناة ، لم تعد اسرائيل تملك خلف خط بارليف وحتى العمق سوى ٢٣٠ دبابة من طراز (م ـــ ٤٨) و (م ـــ ٦٠) دمرها المصريون عن آخرها حينما حاولت القيام بالهجوم المضاد وسط حالة من الذعر والفوضى الشاملة .

من قاذفات اللهب الى السلاح الأبيض

وفى تلك الاثناء انقضت موجة ثانية من المشاة المصريين على التحصينات الاسرائيلية ، كانت مسلحة بقاذفات اللهب ، ووقعت الاشتباكات بالسلاح الأبيض (السونكى) من خندق الى خندق ثم بدأ المصريون على الفور فى اقامة الجسور التى كان بعضها يقام فى نحو نصف الساعة فحسب ، وعلى حد تعبير جندى ، كانت هذه الجسور تكبر وتكبر كأشرعة عملاقة ضخمة من الشاطىء الغربى للقناة الى شاطئها الشرقى .

وعندما ظهرت طائرات الميراج والسكاى هوك الاسرائيلية على ارتفاعات منخفضة جدا فوق رمال سيناء بهدف تدمير الجســـــور المصرية، كانت هناك مفاجأة جديدة فى انتظارها، لقد أضاف المصريون الى منصات صواريخ سام ٢ و ٣ التى نعرفها منذ عام ١٩٧٠ صواريخ جديدة من طراز سام ٦ المتحركة وسام ٧ ستريلا التى يحملها الجنود على أكتافهم ، وهكذا تحطمت طائراتهم بالعشرات خلال ساعات قلائل وسـنـــــط هذه المظلة من الصلب التى غطت الجيشين الثانى والثالث ، كان المصريون يقومون باصلاح الجسور التى تصاب على الفور وبسرعة بالغة ، ومن ثم بدأت القوات المصرية تتدفق الى سيناء فى سيل لا ينقطع .

كانت الخسائر فادحة ، فلم يحدث فى تاريخ اسرائيل قط خلال الحروب السابقة مع العرب أن فقد جيش اسرائيل مثل هذه الأعداد الكبيرة من القتلى والجرحى ، فقد التقى الجانبان المتصارعان بقوات ضخمة للغاية فى منطقة ضيقة نسبيا ، وفى مرات عديدة كان القتال المتلاحم يجرى بين عدد من الدبابات المصـــــرية ومثلها من الدبابات الاسرائيلية ، كانت المئات من الدبابات من الجانبين تلتحمان بعنف بالغ حتى لقد كان بالامكان فى حالات كثيرة حدوث تداخل بين القوات الى حد أن مدافع دبابات الجانبين كانت تلامس بعضـــــها البعض .

وفى واقع الأمر يعتبر هذا القول حقيقة أجمع عليها الخبراء العسكريون العالميون ، فخلال أكبر المعارك للدبابات التى دارت بين جيوش الحلفاء وقوات المحور خلال الحرب العالمية الثانية بمسرح الحرب فى شمال أفريقية ، لم تكن أعداد الدبابات من الجـــــانبين المشتركة فى القتال تتجاوز مائتى أو ثلاثمائة دبابة على أكثر تقدير ، أما خلال حرب أكتوبر فقد كان بالامكان فى بعض المعارك احصاء ما يزيد عن أربع آلاف مدرعة من الجانبين فوق أرض المعركة .

لقد كان عنف القتال من الجانب المصرى سببا فى أن يتخلى الجيش الاسرائيلى لأول مرة منذ نشأته عن العديد من التقاليد المقدسة لديه ، حيث أضطر قادته مرغمين وتحت تأثير عنف القتال الى التخلى عن الجرحى والقتلى فى كثير من الأحيان ، وتركهم فى أرض المعركة ، وللمرة الأولى كذلك اضطر العدو الاسرائيلى الى ترك بعض دباباته ومعداته سليمة ليعمد جنودها وأطقمها الى الفرار والنجاة بجلدهم ، للمرة الأولى كذلك سقط العديد من الأسرى الاسرائيليين بين أيدى القوات المصرية ..

وهذه الحقيقة المرعبة عبرت عنها صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية حينما كتبت :

لقد أوجدت حرب الغفران مفهوما جديدا يبدو أننا لم نعرفه من قبل ، منهكو الحرب ، أعنى أولئك الذين عانوا من الصدمات النفسية والعصبية والمنتشرين الآن فى المستشفيات ودور النقاهة يعالجون فيها من أجل تخليصهم من آثار صدمات الحرب الضارية ، لقد عرف الجنود الاسرائيليون خلال حرب اكتوبر لأول مرة فى حياتهم تجربة العزلة أثناء القتال ، وأهوال الحصار وعار الأسر والخوف من نفاذ الذخيرة .

يصف أحد ضباط المدرعات الاسرائيليين الهجمات المصرية التى تعرضت لها كتيبته والتى كانت بحسب تعبيره على درجة عالية من الاقدام والكفاءة ، مطلقا عليها اسم « الهجمات الزاحفة » فيقول كانت عربات نقل الجند المدرعة المصرية تصل الى ساحة المعركة فجأة ليقفز منها مشاة مصريون ينتشرون بأقصى سرعة ، ثم تعود العربات من حيث أتت بينما يحتمى هؤلاء الشياطين داخل الحفر التى كانوا يحفرونها بسرعة بين الحين والآخر ، وبعد بضع دقائق ينهضون ويقفزون الى الأمام لقصف دباباتنا بصواريخهم من كل

نوع ، ثم يختفون فجاة فى الحفر ، وبعد قليل تنضم اليهم دباباتهم فيبداون فى التقدم تحت ستر نيرانها القاتلة نحو خطوطنا للقيام بالهجوم عليها ، انهم كانوا يتقدمون دائما ، دون أن يعبأوا بأية خسائر ، كما لو كانوا وابور زلط لا يتوقف .

الهـــــــروب من حصــــــون الموت

وهكذا تتكشف الصـــــــورة القاتمة رويدا رويدا أمام القيادة الاسرائيلية التى بدأ الذعر ينتابها ، فتخلع ثوب الصلف والغرور ، ففى ثانى أيام القتال السابع من أكتوبر أصدرت القيادة الاسرائيلية العليا تعليماتها باعطاء الأولوية القصـــــوى لمحاولات انقاذ رجال الحصون المحاصـــــرين .. كانت التقارير قد أفادت بوجود مئات الجنود والضباط والمحاصرين بالفعل الى جانب اعداد كبيرة من الجرحى والقتلى داخل الحصون أو حولها ، هكذا باتت المهمة الأولى للجيش الاسرائيلى متركزة فى محاولة انقاذهم وتخليصهم من براثن القوات المصرية .

وحاولت وحدات الدبابات الاسرائيلية التى كلفت بهذه المهمة الاقتراب من الخطوط المصرية ، الا أنها فشلت فشلا ذريعا فى مجرد الاقتراب من خط المياه والساتر الترابى على الضفة الشرقية للقناة حيث استقبلها رجال المشاة المصريين استقبالا حافلا بالصواريخ المضادة وقاذفات اللهب .

وهنا ادركت القيادة الاسرائيلية أنها كمن يناطح الحائط أو يحرث فى البحر ، حيث ازدادت أرقام الخســــائر فى المدرعات والأفراد على السواء عقب كل محاولة من هذا النوع ، ويكفى أن نذكر أن الجيش الاسرائيلى قد فقد ٤٠ دبابة وعددا من عرباته المدرعة فى محاولة واحدة لفك حصار واحد فى الساعات الأولى للقتال .

يعلق الجنرال « جونين » قائد الجبهة على ذلك بقوله : فى احدى اللحظات قلنا انه اذا ظل الأمر على هذا النحو فسنبقى دون فرق مدرعة على الاطلاق فى جبهة سيناء ، ووســــط كل هذا الاضطراب والفوضى لم نعد نعرف ما وضع كل تحصين ، كان بعضها قد انقطع الاتصال به نهائيا ، وذلك اصبح خارج الصورة .

وعندما يصل موشيه ديان وزير الدفاع الى مركز قيادة جونين فى سيناء يتم وضعه فى الصورة القاتمة ليعلن ونبرات صوته مفعمة باليأس والألم ، لا مناص من التخلى عن جنود الحصون ، فليهرب من يستطيع الهرب ، أما الباقون فهم الجرحى وهؤلاء يبقون بداخلها لمواجهة مصيرهم .

وجهـــان فى المعـــركة

فى نفس اللحظات التى كان فيها الفريق أول أحمد اسماعيل على وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة يوجه أمرا يوميا هادئا يحيى فيه قوات مصر المسلحة ويدعو لهم بالنصر المؤزر فى معركة تحرير أرض الوطن فى لهجة متفائلة واثقة مختتما أمر القتال اليومى بقوله ، فسيروا على بركة الله فى معركة التحرير الكبرى .

فى ذات الوقت وعلى الجانب الآخر كان غـــريمه الجنرال موشيه ديان وزير الدفاع الاسرائيلى يقف أمام جموع الصحفيين والمراسلين فى تل أبيب يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣ ليتفوه بما لم يقله قط من قبل .. لم يحيى الحاضرين ، كان متجهم الوجه شاحبا زائغ البصر ينظر الى لا شىء وهو يقول :

ان هالة التفوق الاسرائيلى قد اسقطها واثبتت بطلانها المعارك الدائرة الآن على جبهة سيناء تلك المعارك التى كشفت للعالم أننا

أقوى من المصريين كما تبين كذلك ان المبدأ الذى طالما رددناه عن تفوقنا عليهم ، أن الهزيمة لابد وإن تلحق بهم اذا اجترأوا على مهاجمتنا ، هو مبدأ خاطىء ، اننا مضطرون الى اعلان الحقائق للشعب الاسرائيلى ولكن بأسلوب أكثر حذرا فى انتقاء الألفاظ .

لقد قللنا من مقدرة المصريين على اقامة الجسور عبر القناة ، كنت أعتقد شخصيا أن اقامتها سوف يستغرق منهم الليل بطوله ، وعليه يمكننا دفع مدرعاتنا لتسحقهم ، ولكن تبين لى أن هذه ليست مسألة سهلة ، فقد كلفنا جهدنا فى دفع مدرعاتنا الى خط المياه ثمنا فادحا للغاية لم نتوقعه قط ، وانه لو كانت اسرائيل قد استمرت فى محاولة دفع المصريين الى الخلف لفقدنا قوتنا وتركنا بلادنا بغير قـــوة ..

ويضيف المغرور ديان ، ولكن هذه المرة بيأس شديد ، لقد اخلينا كافة التحصـــــينات على طول القناة بغير نظام فى أغلب الأحوال ونحن ندفع كل يوم ضريبة الدم فى صورة معدات وطائرات ودبابات ، وفقدنا الكثير من طائرات ودبابات ، وسنحتاج الى مدرعات بعد أن دمر لنا المصريون المئات منها ، لهذا لا نقوم بتعبئة قوات الاحتياط فحسب .. بل ربما استدعينا كذلك المتقدمين فى السـنـــــــن .

لست أعرف كيف ستنتهى هذه الحرب ، أن المصريين يتقدمون ومعهم أسلحة هائلة ، وانه لأمر مرعب أن يحاسب المرء فى مثل تلك الظروف ، ان ما يهمنا الآن هو اسرائيل ، لتذهب الى الشيطان هذه البحيرات المرة أو أية مناطق أخرى ، ان قواتنا تتآكل ، ولدى أمل كبير فى أن يرســـــل الينا الامريكيون امدادات عاجلة من الأسلحة .

بيـــان ديــان الذى لم يذع

وكان ديان قد أعد بيانا آخر يخاطب فيه الشعب الاسرائيلى على شاشة التليفزيون فى ذات الليلة ، ذلك البيان الذى وصفه « مارك جيفن » الخبير العسكرى الاسرائيلى بأنه قد أثار ذهولا لدى الجميع لان الجمهور الاسرائيلى لم يكن مهيأ لتقبل مثل تلك الأنباء، خاصة أن التقارير الصحفية بسبب الرغبة فى تشجيع الأهالى ، كانت تنطوى على مبالغات غاية فى الغرابة مثل .. قمنا بتدمير جميع الجسور المصرية ، وان قواتنا قد صدت المصريين الى الخلف .. وهكذا ..

ويؤكد مارك جيفن أن ظهور ديان لاعلان الحقائق المرة كان حتما سيؤثر على الروح المعنوية للاسرائيليين تأثيرا بالغا .

وهكذا فان جولدا مائير شخصيا هى التى أمرت ديان بالامتناع عن اذاعة هذا البيان على شاشات التليفزيون .

اما هذا البيان الذى كان وزير الدفاع الاسرائيلى فى لحظة اليأس قد قرر اذاعته على الشعب فى اسرائيل فكان نصه :

أيها المواطنون ..

لن أخفى عليكم أننا نجتاز موقفا عصيبا ، قواتنا فى الجولان وعلى جبهة السويس فى حالة ذعر تام وتقوم بالتقهقر أمام القوات المصرية والسورية ، كما لم يعد لخط بارليف وجود، ان اجهزة اشعال مياه القناة التى كنا قد اعددناها قد صارت خرافة ، اننى لا أتمنى أن أكون الآن فى الموقف الذى يعانيه رجال مدرعاتنا فى هذه اللحظات على كلتا الجبهتين ، لقد تم تحييد ســــلاح الجو الاسرائيلى بواسطة الدفاع الجوى القوى فى كل من مصر وسوريا

وقد بلغت خسائرنا فى اليوم الأول للحرب من طائرات الفانتوم والسكاى هوك وحدهما ٣٦ فانتوم و ٣٤ سكاى هوك .

ولكن ، ترى كيف تآكلت القوات الاسرائيلية على الجبهة المصرية فى سيناء ، وكيف أزيل خط بارليف على امتداد القناة من الوجود، وكيف تم بتر ذراع اسرائيل الطويلة .. سلاحها الجوى ، فخر اسرائيل ومبعث زدوها ، كيف فرضت أحداث ذلك اليوم الطويل بصماتها الثقيلة على اسرائيل التى كانت منتفخة الأوداج صلفا وغرورا .. حتى ساعات قليلة قبل تلك الأحداث الدموية المفاجئة .. ؟؟

الفصـــــل الثـــــانى

تحطمت الأسطورة عند قناة السويس

الأسطورة تحطمت .. الصنم المعبود فوق قناة السويس ، وغاص فى رمال سيناء حتى النخاع ، لم يعد جيش السوبرمان هو الذئب الوحيد فى الغابة ، هناك وحوش أخرى من فصائل أكثر وحشية من الذئاب ، لولا دعم أبناء العم سام والمؤسسة الصهيونية المتمركزة فى قلب الدولة الأمريكية لركع ابناء صهيون طويلا ..

ظل مروجو الأسطورة يلفون بها العالم منذ حرب يونيو السوداء يقدمون أسطورة جندى السوبرمان على أنه الوحيد فى العالم القادر على ضرب وتدمير كل ما هو عربى .. خلال ساعة أو ساعات وفى أسوأ الظروف خلال ايام .

وقد ظلوا يعيشون الوهم ، حتى بعد أن بدأت القوات المصرية تدمر حصونهم وتمزق قواتهم المدرعة ، لكنهم لم يصمدوا طويلا .. تراجعوا واحدا بعد الآخر .

فى اليوم الثالث لاندلاع الحرب ، قال موشيه ديان أهم رموز المؤسسة العسكرية فى اسرائيل وهو يحاول اخفاء الاضطراب والارتباك الذى ساد دولة صهيون ، أن القوات الجوية الاسرائيلية تخوض معارك مريرة ، انها حرب ثقيلة بأيامها ، ثقيلة بدمائها ، وبدأوا فى رفع أصوات الاستغاثة عالية لكى تلحقهم أمريكا قبل أن تنهار الدولة الصهيونية كلها .

انهارت جولدا مائير ، وأنهار الجنرالات ، وتحول الصقور الى حمائم ، وارتفع العويل والصراخ حتى دخلت أمريكا ساحات القتال ، وقدمت طائراتها وكل ما فى ترسانتها من احدث الأسلحة بلا حساب ، لكى تصمد اسرائيل فى مواجهة الطوفان والزلزال كما أطلقوا هم انفسهم على الهجوم المصرى .

وفيما بعد توقف حرب أكتوبر ، فان الكثير من الصور والمشاهد والحقائق والتفاصيل بدأت تتكشف وتعرف هنا وهناك ، وما أذيع حتى الآن من رسائل ومذكرات الضباط والجنود الاسرائيليين التى كتبت خلال أيام الحرب تضيف لما لدينا من (قدرة) سلاح الطيران المصرى الكثير من الحقائق ونستكمل الكثير من الصور التى أحاول بكل الوسائل الحصول عليها لأسجلها فى يومياتى .

خرج الكثير عن تلك الحرب فى الأيام الماضية التى اعقبت وقف اطلاق النار ، ولازال يخرج الكثير من داخل اسرائيل حتى الآن ، وهناك على امتداد العالم كتب الكثير ، ولاتزال الصحف والمجلات العالمية تخرج علينا كل يوم بجديد عما جرى فى يوم الزلزال وما بعده عن دور سلاح الطيران المصرى فى الحرب ودور سلاح المشاة والصاعقة وسلاح المهندسين وغابة الصـــــواريخ (سلاح الرعب المصرى) وعن خطة القوات المصـــــرية فى حربها التحريرية لطرد اسرائيل من القناة وسيناء .

يكتب ضابط اسرائيلى فى لحظة نادرة من لحظات الهدوء النسبى فى رسالة الى زوجته .. لئن انقضت على هذه الليلة وأنا حى فانها تكون معجزة ، لقد أطلق علينا المصريون طائراتهم التى هاجمتنا كالذئاب المسعورة ، وكان القصف الجوى كارثة ، والرفاق يهجرون دباباتهم ويتركونها دائرة ، كان القصف المصرى أكثر الأمور

قسوة مرت علينا ، والغارات كثيفة ، والهجمات الجوية متلاحقة دون هوادة ، كان هذا جحيما من النار حقا ، ويبدو أن المصريين قد قرروا القضاء علينا تماما .. لقد دفعوا فوق رؤوسنا يوم الخميس بثلاثة أسراب رباعية من المقاتلات وأصابونا بالصواريخ اصابات مباشرة كما قتلوا رئيس مهندسينا .

رسالة أخرى تكشف لنا جانبا آخر من موقف اليأس الاسرائيلى خلال الحرب يكتب الضابط الاسرائيلى (عاموس) فى مذكراته ، كان القصف المصرى يملأ المكان حولنا ، أصابتنى الشظايا فجريت فى اتجاه الجسر لأشاهد ٤ طائرات مصرية من طراز (ميج) تغير فوقنا ، التصقت بالساتر الترابى ورأيت القنابل تسقط والصواريخ تنفجر ، اقتربت من الجسر ورأيت أحد رجالنا يحترق وقد اختبأ بجواره نحو عشرة من الرفاق .

كانت الطائرات المصرية قد أصابت الجميع هناك ، كل شىء من حولهم يحترق ، بينما تناثر القتلى والجرحى فى كل مكان ، وانحصر عملنا بعد قليل فى جمع القتلى والجرحى الى اقرب مستشفى ميدانى وعلى مسافة قصيرة كانت هناك هضبة صغيرة فوقها حمالات كثيرة مغطاة بالبطاطين ، والى جوار الحمالات أحذية حمراء وسوداء وخضراء ، وشاهدت أطراف خصلات الشعر الأشقر والأسود ظاهرة تحت البطاطين ، كانوا بالعشرات ، خشيت أن أرفع بطانية ، فان رفعت واحدة منها سأرى رفيقا .

وهذه شهادة أحد طيارى العدو الاسرائيلى (ملازم حاييم الكالان) الذى قال .. « اننى أعتقد أن سلاح الطيران المصرى قد أصبح على أعلى مستوى قتالى ، ولم أكن أتوقع أن تقوم الطائرات المصرية بمهاجمة طائراتنا بهذه الجسارة ، وقد شاهدت معركة جوية بين الطائرات الاسرائيلية والمصرية ، أسقطت ثلاث طائرات فانتوم بينما كان الطيران المصرى مسيطرا على المعركة .

ويصف أحد الطيارين الاسرائيليين ــ كان قد عاد لتوه من غارة على جبهة القناة ــ مشاعره ازاء « مصيدة الموت » المصرية بقوله : لقد امتلأ وجداننا بشعور غريب ، اذ وجدنا أنفسنا لأول مرة فى تاريخ الحرب مع العرب نتخذ موقف الدفاع ، فعندما كنا نقترب من قناة السويس كانت تستقبلنا نيران الدفاع الجوى المصرى الذى ملأت صواريخه السماء ، كان المصريون يطلقون علينا ســـيلا من الصواريخ ، فكانت طائراتنا أينما تحركت تقابلها هذه القضـــبان البيضـــاء القاتلة، التى كانت تطاردنا أينما توجهنا .. بينما كانت السماء تذخر بالشظايا من كل لون وحجم ، بفعل القذائف التى كانت تطلقها علينا المدفعية المصرية المضادة للطائرات ، لقد نجوت من الجحيم .

ونتيجة لهذا ، نجد أن الحقيقة التى أذهلت الاسرائيليين خاصة وكافة المراقبين فى أنحاء العالم عامة ، هى أن وسائل دفاعنا الجوى تمكنت خلال أيام أربعة فقط من اسقاط ١٠٣ طائرات اسرائيلية .. بخلاف ما تم اصابته ليسقط فى رحلة العودة الى القواعد التى أقلع منها ، الأمر الذى دفع بوزير الادفاع الاسرائيلى ورئيسة حكومته الى ارسال برقية استغاثة الى الولايات المتحدة الأمريكية شبهها كثير من الخبراء باشارات السفن التى توشك على الغرق (اس . أو . اس) ..

ولعلنا نذكر تورط أبا ايبان وزير الخارجية الاســـرائيلية فى تصريحه الشهير الذى صاح فيه واللوعة تملأ جوانبه ، انهم (أى المصريين) يسقطون طائرة بملايين الدولارات بصـــاروخ بآلاف الدولارات .. وكانت جولدا مائير رئيسة الحكومة قبل اكتوبر قد أطلقت تصريحا تسخر فيه من غابة الصواريخ المصرية قالت فيه على شاشة التليفزيون الدانمركى .. ان المصريين قد زرعوا كل

الأراضى غرب القناة بالصواريخ والله وحده يعلم أين سيجدون مكانا لزراعة القمح أو الفاكهة فى المنطقة ..

كما كانت مجلة النيوزويك الأمريكية قد نشـــــرت فى مارس ١٩٧٣ مقالا نقلا عن المصادر الاســــرائيلية جاء فيه .. انه يمكن لاسرائيل أن تكتسح طول مصر وعرضها دون أية مقاومة أو مواجهة من قوات الدفاع الجوى .. كما يمكنها تدمير عناصر الدفاع الجوى المصرى بالسرعة التى تم بها ذلك فى عام ١٩٦٧.

أما فى اليوم الثانى للحرب يوم الثامن من أكتوبر ١٩٧٣ .. فيقف موشيه ديان ليعلن للشعب فى اسرائيل وللطيارينالاسرائيليين فى عصبية .. كفوا عن الحديث عن تلك الصواريخ المصرية .. هناك حقا مشاكل ومتاعب لكننا سنتغلب عليها بسرعة .

المرة الأولى فى تاريخ الحــــروب

كذلك كان من نتائج كفاءة وسائل دفاعنا الجوى خلال حرب أكتوبر أن القيادة المصرية نجحت تماما فى (تحييد) سلاح الجو الاسرائيلى الذى كانت اسرائيل تعقد عليه كل آمالها ، واخراجه من المعركة ، وبخاصة فى مراحلها الأولى الحاسمة ، وبذلك اتيحت للمعركة التى كانت رحاها تدور على الأرض أن تأخذ مداها حرة مباشرة ، وهنا ظهرت حقيقة المقاتل المصرى أمام العالم ، وهنا أيضا كانت المقاومة المذهلة ، فقد كنا جويا نهاجم بالدفاع بينما كان العدو على النقيض يدافع الهجوم .. لقد انتصر الدفاع المهاجم على الهجوم المدافع ..

انتصر الدفاع المهاجم وعلى صخرته العتيدة تحطم ســـــلاح الطيران الاسرائيلى ، العمود الفقرى لجيش (القرصان الجوى)

ومعه تحطمت الى الأبد أسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى التى ملأ بها العدو الدنيا ضجيجا ودعاية ، وحاول أن يملأ قلوبنا خوفا أو قلقا ، كذلك تحطمت تلك الفروق الصارمة التى وضعها البعض بين الأسلحة الدفاعية والأسلحة الهجومية ، اذ أثبتت المعركة أن كل سلاح يمكن أن يستخدم للغرضين معا ، انما الأمر يتوقف على الاطار الاستراتيجى للمستخدم .

كما يعبر عن هذه الطفرة المصرية فى الاستراتيجية العسكرية وقلب مفاهيمها السائدة وزير الجيش الأمريكى حينما كتب بعد الحرب مباشرة ان حرب الشرق الأوسط قد بددت الكثير من المفاهيم فلأول مرة فى التاريخ العسكرى الحديث تتمكن قوة عسكرية كبيرة الحجم من انجاز عملية اقتحام مانع مائى عظيم دون أن تفقد طائرة واحدة من سلاحها الجوى ، لقد تمت عملية عبور القناة بصواريخ متطورة استخدمت بكفاءة مذهلة ، وهذا يجعل من الضرورى ادخال تغييرات جديدة على الاستراتيجية العسكرية فى العالم .

اما المعلق الشـــــهير لمجلة النيوزويك الأمريكية « أرنوردى بورجريف » الذى كان قد كتب قبل الحرب بشهور قليلة أن وسائل الدفاع الجوى المصرية قد باتت بعد رحيل المستشارين السوفييت عديمة الفاعلية فقد كتب هو ذاته ــ وكان مرافقا للقوات فى جبهة سيناء ــ يقول :

ان ٣ من كل ٥ طائرات اسرائيليةحلقت فوقالقناة قد تماسقاطها بفعل النيران المصرية الدقيقة ، وان هذه الطائرات كانت فى معظم الأحيان تضطر الى القاء حمولاتها من القنابل والصواريخ فى ارتفاعات عالية . . الأمر الذى أضعف من نسبة دقة تصويبها الى حد كبير ، كما أن المدفعية الاسرائيلية بعيدة المدى قد فشلت فى اصابة أو تدمير

أى من المعابر المصرية فوق القناة ، لأن الدفاع الجوى المصرى لم يكن يسمح لطائرات الهليكوبتر الاسرائيلية المخصصة لملاحظة الضرب وتصحيحه بالتحليق ، ولهذا كانت قنابل المدفعية الاسرائيلية تسقط على مسافة تزيد عن ٢٠٠ متر بعيدا عن اهدافها .

التفـــوق الاســـــرائيلى ليس كافيا

يعلق الخبير العسكرى الأمريكى « دروميد لتون » فى أعقات الحرب مباشرة على ما اطلق عليه « ضياع التفوق الجوى الاسرائيلى فيكتب .. ان التفوق الجوى الاسرائيلى الذى كانت أمريكا واسرائيل تعتبرانه أمرا مسلما به عند وقبل نشوب الحرب قد انهار بصورة خطيرة للغاية ، وذلك لاسباب عديدة منها .. مهارة وكفاءة اجهزة الدفاع الجوى المصرى فى استخدام الصواريخ (أرض — جو) بصورة لم تكن متوقعه على الاطلاق ، وبالمثل القوات الجوية المصرية ظهرت على مستوى قتالى عال بصورة مدهشة حيث اظهر الطيارون العرب أنهم لا يفتقرون الى الاقدام والجسارة ، كما اظهرت الأطقم الأرضية قدرتها العالية على تشغيل وادارة أســـــراب حديثة من المقاتلات تحت ظروف القتال الصعبة .

كما انه من الملاحظ خلال الحرب الجوية التى دارت على الجبهة المصرية ان الصواريخ المصرية المضادة للطائرات والطائرات المقاتلة الاعتراضية واجهزة الرادار قد قامت بالعمل جميعها كفريق متكامل على الجانب المصرى ، ويتفق الخبراء العسكريون العالميون على أن القتال على جبهة سيناء قد أثبت قدرة مصر العالية على اقامة جهاز دفاع جوى متماسك لقواتها البرية ، اعتمادا على الكفاءة فى تشغيل الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات ، علاوة على شبكة رادار وانذار عالية الكفاءة .

مـــوقف جـــديد تمـــاما

اما الجنرال « بوفر » مدير معهد الدراســـات الاستراتيجية الفرنسى .. فقد كتب فى اعقاب الحرب لقد دارت المعركة وأدت كفاءة المصريين فى استخدام الصواريخ المضـــادة للطائرات خلال حرب اكتوبر الى تقديم الوقاية الفعالة للقوات البرية ، حتى فى غياب الحماية الجوية بواسطة الطائرات والى خلق موقف جديد تماما لم يسبق ممارسته فى الحروب السابقة ، واعنى بذلك التوازن بين القوات الجوية لدى الطرفين ، الذى خلق موقفا يختلف تماما عما لمسناه فى الحرب العالمية الثانية أو فى الجولات العربية الاسرائيلية المسلحة السابقة ، عندما كان أحد الخصـــمين ينجح فى احراز « التفوق الجوى أو السيطرة على ســـماء المعركة خلال المرحلة الافتتاحية الأولى فى الحرب .

وهكذا شهد العالم بالنجاح المذهل الذى احرزته قوات الدفاع الجوى المصرية حينما قامت منذ ظهيرة الســـادس من أكتوبر ببتر « ذراع اسرائيل الطويلة » .

ومن بين الكثير من الشـــهادات الدولية حول دور الطيران المصرى فى حرب اكتوبر ، تأتى شهادة وزير الجيش الأمريكى لما لها من أهمية ومغزى خاص ، فالولايات المتحدة الأمريكية انقذت اسرائيل بالفعل خلال حرب أكتوبر من خلال الجسور الجوية التى كانت تنقل الأسلحة الحديثة الى ميادين القتال مباشرة .

قال وزير الجيش الأمريكى بعد حرب أكتوبر .. ان اقتحام القوات المصرية لقناة السويس فى مواجهة التفوق النوعى للطيران الاسرائيلى ليعتبر علامة بارزة فى الحروب الحديثة ، سوف تؤدى الى تغييرات كبيرة فى الاستراتيجية العالمية ، ان حرب الشـــرق

الأوســـط قد بددت الكثير من المفاهيم .. فلأول مرة فى التاريخ العسكرى تتمكن قوة عسكرية كبيرة الحجم من انجاز عملية اقتحام مانع مائى عظيم دون أن تفقد طائرة واحدة من سلاحها الجوى .

ان سلاح الجوى الاسرائيلى لم يتمكن من تحقيق النجاح الذى كان الشعب فى اسرائيل يتوقعه قبل الحرب ، لقد اتضح من خلال سير المعارك أن التاكيدات الرسمية التى كانت تؤكد قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على القيام بعمل سريع وحاسم ضد المصريين فى حالة تجدد القتال ضدهم كانت مزاعم غير دقيقة .

هنا يقول الفريق محمد على فهمى ، كنا ننتظر بطبيعة الحال أن يقوم العدو بتنفيذ ضربة جوية فجر يوم ٧ أكتوبر ، تحقق له السيطرة الجوية على سماء المعركة ، وبالفعل حاولت تشـــــكيلاته الجوية الكثيفة القيام بتدمير مطاراتنا الأمامية حين هاجمها بسبعين طائرة بخلاف الأسراب التى كانت منتظرة خارج مدى عمل الصواريخ والمقاتلات ، وهاجم جميع مطاراتنا المتقدمة مقتربا على ارتفاعات منخفضة كعادته فى محاولة لتقليل خسائره وتحقيق نتائج ايجابية ، الا أن النتيجة التى حققها لم تخرج عن فقدانه لثمانى عشرة طائرة ، بينما لم ينجح فى تدمير أو تعطيل مطار واحد ، لقد كان من نتيجة القتال وشراسة دفاعنا الجوى أن اهتزت ثقة الطيارين الاسرائيليين بأنفسهم ، وانخفضت روحهم المعنوية الى الحضيض ، وثبت لنا هذا من استجوابنا لهم بعد سقوط الكثيرين منهم فى أيدينا .

وعلى أرض المعارك داخل سيناء ، لقن رجال المشاة والصاعقة والمدرعات الجيش (الشجاع) درسا شديد القسوة لن ينساه كل من شارك فى هذه الحرب ، ولازلت هنا أنقل شهادات القادة والجنود الاسرائيليين الذين واجهوا الجيش المصرى عند اقتحامه القناة وفى داخل سيناء ..

الطـــــــوفان

أحد ضباط المدرعات الاسرائيلية يروى ذكرياته الأليمة فيقول :

أخذت أنباء معارك الدبابات تصبح قاتمة بصورة واضـــــحة لنا ، ارسلت احدى وحداتنا المدرعة التى كانت تقوم بهجمة مضادة يائسة قرب القناة أول تقرير لها تقول فيه : ثمان دبابات تحترق فوق الساتر الترابى ، عشرات اخرى دمرها المصريون ، باقى الدبابات تقاتل وهى تتقهقر دون انتظام ، فشل الهجوم المضاد على المصريين، وتقوم دباباتنا فى حالة من الذعر بعد أن نفذت ذخائرها بالانسحاب شرقا ، قوات مصرية جديدة بدأت تهاجم بعنف من ثلاث نقط جديدة عبر القناة .

بعد قليل تلقى مركز قيادة الجنرال « بيرن » ضربة مباشرة .. الأمر الذى دفع بنائب قائد الفرقة الى القيام بنفسه بالاشراف على عملية نقل الجرحى والقتلى الى الخطوط الخلفية ، بعد ظهر يوم ٨ أكتوبر ، لم يتبق فى سيناء بأسرها سوى حفنة قليلة من الدبابات الاسرائيلية كى تواجه هذا الهجوم المصرى الكاسح .

الحقيقـــــة المرعبـــــة

يقول الاسرائيليون فى وصف معارك الدبابات الكبرى التى دارت فى سيناء ..

فى اليوم الثالث للحرب كانت الخسائر الاسرائيلية قد بلغت حدا مروعا ، كذلك الأسرى الذين كان من بينهم الكولونيل « عساف ياجورى» الذى ظهر فى ذات المساء على شاشات التليفزيون المصرى وقبيل غروب ذلك اليوم .. أصـــدرت قيادة الفرقة المدرعة بسيناء أوامرها بالبحث عن دباباتنا الشاردة وتجميعها في نقطة واحدة .

صـــائدو الدبابات المصـــريون

يروى أحد قادة الكتائب المدرعة الاسرائيليين فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ما شاهده بنفسه من الفرقة الثانية المدرعة المصرية يقول :

كان المصريون يركضون نحو دباباتنا دون خوف ، يتسلقونها ويقتلون بالقنابل اليدوية والصواريخ، كان المشهد حولى رهيبا ، موجات تتلوها موجات من مشاة المصريين يهاجمون دباباتنا كأنهم فى مناورة حربية ، لقد فقدت ٨ دبابات من وحدتى فوق الساتر الترابى خلف القناة مباشرة .. بينما تلقت عشـــــرات من دباباتنا قذائف صواريخ (ساجر) ، فبدأت فى الاشتعال وهى تحاول الفرار شرقا

كانت الدلائل واضحة تماما على انهيار هجومنا المضاد بعد أن انسحبت دباباتنا فى حالة من الذعر دون نظام ونفدت الذخائر ليبلغنى القادة المرءوسين بان مشاة المصريين يهاجمون دباباتهم فى شراسة لم يعرفها من قبل ، كانت المنطقة كلها مغطاة بقذائف المدفعيـــــة والكاتيوشا والهاونات ، فانفجرت قذيفة على الأقل فى كل متر ، ليستمر (قنص) المشاة المصريين للدبابات بالصـــواريخ كما تلقت مجموعة القيادة المدرعة ضربة مباشرة .

وفى ساعات بعد الظهر يوم الاثنين ٨ أكتوبر كان العدد القليل من دباباتنا التى لم تدمر تتأهب للقيام بمحاولة يائســـة لكبح جماح الطوفان المصرى الرهيب ، ليواصل مشاة المصريين الهجوم علينا دون وجل ، كانت خسائرنا خصوصا فى ثالث أيام الحرب هائلة ، كما وقع الكثير من رجالنا فى أسر المصريين وخاصة من بين أطقم الدبابات الذين قدر لهم النجاة والخروج من الدبابات المحترقة ، وكان

من بين هؤلاء الكولونيل (عساف ياجورى) قائد اللواء ١٩٠ الذى ظهر الليلة ذاتها على شاشة التليفزيون المصرى .

لقد كانت نسبة الخسائر البشرية فى صفوفنا كبيرة للغاية ، تجاوزت النسبة العددية للقتلى والجرحى فى هذا اليوم الحافل بالدماء ، كل ما عرفه الجيش الاسرائيلى فى الحروب السابقة مع العرب .

يكتب ضابط المدرعات الاسرائيلى (بارى) والذى شاء له حظه العاثر أن يشترك بفصيلة مدرعة فى القتال على جبهة سيناء .. لقد علمونا فى مدرسة المدرعات أن دبابة العدو هى الهدف الرئيسى الذى ينبغى أن نوجه اليه اهتمامنا أثناء القتال ، ويأتى بعد ذلك فى المقام الثانى الأسلحة المضادة للدبابات التى لابد لنا من تدميرها ، وبعد ذلك يأتى دور المشاة ، فى المقام الأخير ، لنقوم بسحقهم بمدرعاتنا ..

ولكن عندما وصلنا فى اليوم الأول للحرب الى حافة القناة توقفنا بدباباتنا وبدأنا فى اطلاق النار حسب قواعد الحرب التى تعلمناها ، وشعرت باطمئنان فى بادىء الأمر عندما لاحظت أن الأهداف التى تواجهنا هم من رجال المشاة المصريين وليست المدرعات المصرية لقد كان ذلك يعنى بالنسبة لنا حقيقة مفاجئة ومطمئنة فى ذات الوقت قلت لرجالى يبدو أن المصريين ينوون الانتحار ..

وبدأنا فى اطلاق النار ، كان يبدو لى أننى أجيد التصويب ضد هؤلاء المشاة من المصريين ، ولكن ولدهشتى وجدت أن حركتهم لا تتوقف ، ولم أشعر الا والنار تشتعل فى مؤخرة دبابة القيادة التى كنت أستقلها ، شعرت بحروق فى ذراعى والقيت بنفسى خارج الدبابة لأنظر حولى ، وياللهول ما رأيت القذائف النارية المصرية

تتراقص فى الجو كالشياطين متجهة نحو دباباتنا ، لم افهم ما الذى يحدث ولكننى فهمت بعد القتال ، أن هذه الصواريخ وأن مشـــاة المصريين الذين يواجهوننا لا يقلون خطورة عن الدبابات ذاتها ، لقد كان الأمر بالنسبة لى يشكل مفاجأة تامة وقاسية ، لقد ظللت طوال هذا اليوم اشاهد هذه القذائف الجهنمية تتنزه فى الصـحراء وهى تنطلق نحو مدرعاتنا من قلب الرمال .

« دمـــوع مدفعجى اســـرائيلى »

كنا مذهولين ، فقد بكى المدفعجى ، وكنا لانزال غير فاهمين لما يحدث أمامنا ، ظللت أفكر طوال الوقت فى هذا الصاروخ الرهيب، لم أكن أعرف ماذا يسميه المصريون ، لأنه عندما يخترق الدبابة يولد موجة حرارة تزيد عن ألف درجة مئوية ، وانه يدمر اجهزة الدبابة ، ومن شأنه احراق كل من فيها .. اما دبابات باقى وحداتنا فلم يكن حظها بأحسن منا ، فعندما نظرنا الى التلال الرملية المجاورة شاهدنا أكواما من الصلب المحترق كانت قبل دقائق تمثل سلاح المدرعات الاسرائيلى .

وخلال ربع ســاعة بدأ رجالنا الذين نجوا من الموت بأعجوبة يستمعون الى صفير رجال المشاة المصريين الذين بداوا يمرون امامنا متجهين نحو الشمال الشرقى على مسافة ٥٠٠ متر منا ، لنشاهدهم يرفعون علما فوق الساتر الترابى ، وتعرف رجالنا على العلم الذى يحمل الصقر والالوان الثلاثة .. العلم المصرى .

ان القسم الاكبر من الموجة المدرعة الاسرائيلية التى كان من المفروض أن تشكل قوة الهجوم المضاد الرئيسى على قوات العبور المصرية قد تم سحقه تماما على أيدى مشاة المصريين فى معارك دامية استمرت ساعات طوال .

وقال القائد الاسرائيلى لحصن بور فؤاد فى مفكرته بالحرف الواحد .. فى صباح السادس من أكتوبر لاحظت ان بعض القوات المصرية تقوم بتحركات واسعة، وعندما أبلغت قائدى سـسخر منى قائلا : انها ليست سوى مجرد مناورات ، وأضاف ان العرب ليسوا الا عربا وتكفى طلقة واحدة لتجعلهم يفرون مذعورين .

وفى ظهيرة نفس اليوم انطلق المصـريون كاللهب نحونا ، وحاولت الدفاع مع جنودى عن الموقع دون جدوى ، فما هى الا دقائق حتى كان ٣٢ من رجالى قد صاروا فى عداد القتلى ، بينما قام بعض مشاة المصريين بأسر الباقى وأنا من ضمنهم ، انها لحظات رهيبة لا أستطيع مجرد استعادة ذكراها .

بحــر من الصــينيين

ضابط آخر ممن اشتركوا فى المعارك المدرعة لصد الاجتياح المصرى الكاسح خلال تدمير خط بارليف مساء السادس من أكتوبر ، الملازم « بيجل » من مستعمرة (ربشون نزيون) والذى تولى قيادة فصيلة دبابات فى يوم القتال الأول ، يعطينا وصفا لما أطلق عليه (وقوعه فى بحر من الصينيين) يقصد بذلك رجال المشاة المصريين ..يد كتب :

بعد متاعب كثيرة وصلت بدباباتى ظهر يوم ٧ أكتوبر الى الخط الأمامى قرب القناة ، بين الطاسة وبالوظة ، لم أكن قد تسلمت أية تعليمات واضحة من قيادتى .. بل تزودت أنا وقائد الكتيبة من الشائعات فقد بقى معى ست دبابات فقط من الثمانى التى خرجت بها ، وللحقيقة فانى أذكر أننى لم أكن أعلم اين موقعنا بالضبط ، وكم نبعد عن خط المياه (القناة) وأين يوجد العدو المصـــرى ،

وانتفضت على جهاز اللاسلكى مرات عديدة وسألت القائد عن وجهة تحركنا ومكان العدو ، فأجابنى فى غضب وصبر نافذ .. لا تسألنى .. ان معلوماتى تماثل معلوماتك تماما ..

وجهـــا لوجـــه امام المصـــــريين

سمعت أصوات المدافع ، وبدأت قذائفها تسقط على دباباتنا ، وأعطانى القائد أمرا لاسلكيا باطلاق النيران ، وهنا توقف اللاسلكى عن العمل ، وشاهدت غبار الانفجار الهائل ناحية كوبرى الفردان بالقرب من موقعنا وحوله بعض الدبابات المصرية ، وبعدها اكتشفت وخلال دقائق قليلة أننى داخل (بحر من الصينيين) .

كان مشاة المصريين فى أعداد غفيرة قد برزوا الينا من داخل الخنادق الخفية جيدا ، ومن وراء التلال ، وبدأوا الهجوم علينا ، لم يحذرنا احد فى أية مرحلة بأننا سنقاتل جنود المشاة ، توقف رشاش الدبابة عن العمل بعد طلقتين ، وهكذا أصبح قصفهم بمدفع الدبابة الرئيسى المخصص للضرب على الذبابات ، أمرا غير واقعى بطبيعة الحال .

كان جميع الجنود المصريين من المشاة فى حالة هجوم، فجأة شاهدت صاروخا يطير تماما باتجاه احدى دباباتنا (السنتوريون) ، كانت على يمينى مباشرة ، رأيت الصاروخ يقترب منها ويصيبها اصابة مباشرة ليطير الضابط والبرج معا فى الهواء ، وكل دبابة فى هذه المنطقة دمرت .

وهنا بدأت أعطى أوامر هستيرية الى السائق ، تعليمات متناقضة لا ارادية .. سر اليمين .. سر الى اليسار .. قف .. سر .. الي الامم .. الي الخلف .. وهكذا ..

وبعد قليل كنت بدبابتى وحيدا فى المنطقة باسرها بعد أن تحولت باقى دباباتنا الى قطع من الخردة ، ثم شعرت بغبطة ، لقد تلقينا قذيفة أصابت البرج ، حاولت تشجيع الطاقم .. هذا لا شك صوت المدفع ، ولكنى سرعان ما شعرت باصابة أخرى ، هذه المرة من قذيفة مصرية قريبة .. آر بى جى .

وهكذا بدأت بعد ان تعطلت كافة اجهزة الاتصال الداخلى بالدبابة أعطى الأوامر للطاقم بالصراخ والرفس ، وقد أيقنت اننا نسير نحو النهاية المحتومة ، خاصة بعد أن علمت أن كلا من قائد الكتيبة وقائد السرية قد أصيبا .

ومن أبرز ما كتب عن هذه المعارك ما كتبه وقــرره الخبير العسكرى العالمى « ادجار اوبلانس » .

وهكذا لم يعد الجندى الاسرائيلى يتقدم للامام وهو واثق ان العرب سوف يفرون تلقائيا قبل ان يقترب منهم .. وسرعان ما أدرك الاسرائيليون أن الدفاع أصبح حيويا لبقائهم على قيد الحياة .. وعلى سبيل المثال فان القوة الاسرائيلية التى تسللت الى الضفة الغربية لقناة السويس فيما عرف بجيب (الدفرسوار) كانت تتحرك ببطء وحذر ، على العكس تماما من الوضع المنطقى والطبيعى لطابور مدرع ينبغى عليه الزحف سريعا عبر الصحراء .

وفى الليل كانت الدبابات الاسرائيلية تتكدس فى مجموعات وتبث أعدادا هائلة من الالغام حول نفسها كى توفر قدرا من الحماية يزيد عما تحتاج اليه فى واقع الأمر ، الذى يعتبر الغاء تاما لقدرتها على الحركة ، وعندما اضطر الاسرائيليون للانسحاب من الضفة الغربية رفع سلاح المهندسين المصرى اكثر من ثلاثة أرباع مليون

لغم أسرائيلى من المنطقة التى لم يحتلها الاسرائيليون سوى فترة قصيرة للغاية .

وكذا اجبرت قوات المشاة المصرية اسرائيل على ضرورة التفكير بعقلية دفاعية .. الأمر الذى كانت اسرائيل تنظر اليه قبل حرب أكتوبر بعين الاستعلاء ،، لقد قلب الجندى المصرى قواعد الحرب .

وهكذا وعلى نفس الأرض .. أرض سيناء .. زالت الهالة وانكشف الأمر بالنسبة للجيش الاسرائيلى (الذى لا يقهر) كما يقول نفس الخبير (ادجار أوبلانس) .

عبر حرب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦، ١٩٦٧ اكتسب قادة الدبابات الاسرائيليين شهرة فرسان العصور الوسطى ، حيث كانوا يتمتعون بقدرة فائقة على الحركة ويحمون انفسهم بالدروع ويمتلكون قدرة على الهجوم لم يتمكن العرب من التصدى لها فى أرض المعركة .. ولكن فى أعقاب حرب ١٩٦٧ أضطر الاسرائيليون الى اتخاذ وضع الدفاع عندما تطلب الأمر تعزيز خط بارليف على امتداد القناة .. بينما وقف فرسانهم (مدرعاتهم) فى الخلف مستعدة للتحرك قدما .. لقد ظلوا يعلقون كل اهتمامهم بالدبابة بوصفها سلاح الحرب الرئيسى .. بينما تجىء الأسلحة الأخرى بعدها فى الأهمية .

وفى جرب أكتوبر وعلى الجبهة المصرية قام قادة المدرعات الاسرائيليين شأنهم فى ذلك شأن فرسان العصور الوسطى بشن الهجوم بسرعة فائقة على المصريين فى محاولات لارهابهم واجبارهم على التراجع .. بدأوا هجماتهم بالفصائل ، ثم الكتائب ، ثم بألوية كاملة ، وظلوا يهاجمون بلا هوادة .. الا أن الفشل كان حليفهم فى كل مرة ليصابوا بخسائر جسيمة تمثلت فى الأيامالثلاثة الأولى فى

تدمير أكثر من ٢٥٠ دبابة على أيدى المشاة المصريين الذين صمدوا صمودا اسطوريا فى الصحراء المكشوفة ، ومعهم صـــواريخهم وقواذفهم المضادة للدبابات .

وعند ذلك فقط ادرك الاسرائيليون بعد هذه الخسائر الفادحة أن وضعهم الهجومى ليس الا عملا انتحاريا .

ان جنرالات اسرائيل بدأوا يفكرون بعد حرب أكتوبر فقط بأن مشاتهم فى اسرائيل فى حاجة الى مثل قدرة المصريين على القتال المتحرك ، والمؤكد كما قال هذا الخبير العسكرى ، ان دراســتنا لحرب يوم الغفران قد أثبتت أن قوات المشاة المصرية كانت مدربة على أرقى مستوى ومنظمة بكفاءة واقتدار سمح لها بأن يقوم رجالها بالانتظار فى خنادقهم أو فى مواقع مختفية جيدا ، حتى تصـــبح الدبابات الاسرائيلية داخل المرمى المؤثر لنيرانهم ، وعلى الرغم من ان بعضهم قد فقد حياته بشرف .. الا أنهم أثبتوا من جديد فعالية دور المشاة خفيفة الحركة فى حروب الصحراء بعد سيادة تمتعت بها المدرعات طويلا ..

لقد دفعت الكفاءة القتالية للجندى المصرى خلال حرب أكتوبر جنرالات اسرائيل بالفعل على اعادة النظر فى نمط القتال الذى سيتم فى الجولات القادمة ، وفى ذلك يكتب الجنرال الاسرائيلى نتنياهو بيليد .. عن تصوراته للجولة القادمة مع مصر ..

لقد كنا فى الحروب السابقة على حرب يوم الغفران نعمد الى تدمير سلاح الطيران والمدرعات المصريين أولا .. أما الآن وعلى ضوء نتائج حرب أكتوبر ودروسها .. فســــيكون علينا فى المقام الأول القيام بتحييد أو تدمير مشاة المصريين أولا .. لما ثبت من

خطورتهم البالغة على مدرعاتنا فى معارك سيناء والذين اثبتوا فاعليتهم ضد دباباتنا خلال الحرب الأخيرة .

هكذا تغيرت موازين القوى تماما ..

وانسحبت اســـــرائيل من كل سيناء ، وكنت لا أشك فى ذلك لحظة واحدة ، مهما حاولت اسرائيل فانها لن تنسى ما جرى فى أكتوبر .. وهى لا تريد بالتأكيد دخول تجربة نيران اكتوبر مرة أخرى فى القريب المنظور على الأقل .. لن تدخلها فى ظل صقور اسرائيل الموجودين الآن على الأقل .

الفصــــل الثـــالث

حرب أكتوبـــر فى عيون العـــالم

حرب أكتوبر التى أحدثت زلزالا رهيبا فى الدولة الصهيونية ، وحطمت أسطورة جيش السوبرمان والجندى الاسرائيلى الذى لا يقهر .. وغيرت موازين القوى فى الشرق الأوسط .. وأعادت لمصر والأمة العربية كرامتها .. واعادت للمقاتل المصرى ثقته بنفسه وبقيادته وبأمته وبقدرته على الصمود والقتال وهزيمة اشـــرس أعدائه ..

كيف نظر العالم الى هذه الحرب من خلال صحافته .. ان عيون العالم كله كانت على ساحات القتال .. حيث تابعت الصحافة العالمية سير المعارك ساعة بساعة ويوما بيوم وأكدت كلها تقريبا اسقاط نظريات العدو حول قدراته العسكرية وشـــجاعة الجندى الاسرائيلى السوبرمان ، وسقوط نظرية الحدود الآمنة ، وسقوط خط بارليف ، ونجاح الجيش المصرى فى العبور وتحطيم حصـــون العدو وهزيمته ، ووضع شجاعة الصهاينة فى مكانها الصحيح ، حيث تغيرت خريطة الصراع كله ..

وسأحاول اليوم أن اقدم بعض ما كتبته الصـــحف العالمية واذاعته وكالات الأنباء بالمتابعة والتحليل لحرب اكتوبر ونتائجها حتى تكتمل الصورة فى هذه اليوميات من خلال حرب أكتوبر بعيون العالم ..

كتب دور ميدلتون الخبير العسكرى فى صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية :

ان استخدام المتحدثين الاسرائيليين لكلمة الاســـتنزاف فى وصف المرحلة الحالية لحرب الشرق الأوسط يعتبر من وجهة نظر المصادر العسكرية فى الولايات المتحدة ودول الغرب الأخرى دليلا على أن الصراع قد اتخذ أبعادا مختلفة بطريقة مذهلة عن تلك التى كان عليها انتصـــــار اسرائيل الخاطف ١٩٦٧ ، فان عجز القوات الاسرائيلية عن اخراج المصريين من مواقعهم على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعن اخراج السوريين من مرتفعات الجولان خلال المعارك التى دارت فى يومى الاثنين والثلاثاء هو أول صدمة عنيفة للاسرائيليين منذ حرب فلسطين (١٩٤٨ — ١٩٤٩) ولاتزال أهداف اسرائيل كما هى لم تتغير .. فـن الاستعراضات الجانبية مثل قصف المناطق المدنية بالقنابل فى دمشق — مهما كان مدى نجاحها — لن تغير من اهمية هذه الأهداف .. حيث أن المصادر العسكرية تتفق على أنه يتحتم على الاسرائيليين الآن أن يشنوا هجمات مضادة جديدة أوسع نطاقا من تلك التى شنوها خلال اليومين الماضيين ، وهذا يؤدى بهم بشكل لا يمكن أن نتجنبه الى تكبد خسائر أكبر .

ويبدو أن ثمة خطأ ما قد وقع .. فان هناك اختلافا بين المزاعم التى أعلنتها اسرائيل مساء الاثنين عن نجاحها فى قذف وتحطيم رؤوس الجسور المصرية واحتواء القوات السورية ، وبين الحقائق المؤلمة التى ظهرت يوم الثلاثاء والتى تدل على أن أمام اسرائيل معارك طويلة وشاقة ، وقد ذكرت المصادر العسكرية البريطانية على أن الهجوم الاسرائيلى المضاد على رؤوس الجسور المصرية قد جاء على غير استعداد مسبق ، وأن الاسرائيليين ربما بسبب غرورهم الزائد عن الحد فى قوتهم اعتمادا على تجربة حرب ١٩٦٧

قد هاجموا بقوات غير كافية ، واستعدادات جوية ــ دون المستوى المطلوب ــ ضد قوات ارتفع مستوى تدريبها وروحها المعنوية كثيرا عما كانت عليه منذ ست سنوات .

كذلك فان القوات المصرية فور عبورها للقناة لم تتسـرع بالاندفاع الى عمق سيناء حيث كان من الممكن أن تصبح فريسة لهجمات الطائرات والمدرعات الاسـرائيلية ، انما اكتفوا بتعزيز رؤوس الجسور لكى يواجهوا الهجوم الاسرائيلى المضاد الأول الذى لم يكن شاملا بدرجة كافية .

وقالت صحيفة الأوبزرفر البريطانية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ ..

ان كبار القادة الاسرائيليين لم يعولوا الا قليلا بالنسبة لشجاعة خصومهم وقدرتهم التكتيكية ، ولربما وقع هؤلاء القادة أيضا ضحايا لاسطورة أنهم قوم لا يقهرون ..

وفى يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٣ قال معلق نيويورك تايمز الأمريكية .. يجمع الخبراء العسكريون على أن استمرار المعركة مع وجود قوة عسكرية كبيرة متماسكة شرق قناة السويس سوف يطيل أمد الحرب من أربعة الى خمسة أسابيع أخرى ، وبعد القرار المصرى بالهجوم من رؤوس الجسور نحو الممرات الجبلية التى تعتبر مفتاح السيطرة على سيناء بداية انتقال زمام المبادرة التكتيكية الى الجانب العربى .

وكتب الكولونيل ليونتيف المعلق العسـكرى لصحيفة النجم الأحمر فى ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ ..

دمرت العمليات الناجحة التى أنجزتها الجيوش العـربية اسـطورة جيش اسـرائيل الذى لا يقهر ، وبدأت الحرب بين اسرائيل والعرب تأخذ أمد الحرب الطويلة ، ولن تتمكن اسرائيل

فى النهاية ، وبالرغم من كل المعونات التى تتلقاها من الخارج ، من التغلب على العرب الذين يخوضون نضالا تحريريا عادلا ، وليس هناك بأى حال وجه شبه بين تلك الحرب وحرب يونيو ١٩٦٧ التى كسبتها اسرائيل ، فاسرائيل تواجه هذه المرة خصما جديدا أكثر قوة وأكثر كفاءة .

وقالت صحيفة تريبيون البريطانية فى عددها الصـــــادر يوم ٢١ اكتوبر ١٩٧٣ :

اذا كان العرب برهنوا على شىء منذ شنهم الحرب الجديدة بالاضافة الى ايضاحهم قدرتهم على القتال .. فان هذا الشىء هو أنهم أعربوا عن واقعيتهم واعترافهم بالحقائق القائمة .. وقد بدا هذا واضحا فى الاستراتيجية العســـــكرية وفى نواح أخرى من الدعاية العربية التى تعدت مجـــــرد اعرابهم عن أهدافهم فى هذه الحرب .

وتابعت صحف العالم فى تعليقاتها اليومية والأسبوعية سير العمليات العسكرية ونقلت الصـــــحف أن خبراء الدفاع فى لندن صرحوا بأن التوازن العسكرى فى الشرق الأوسط كان قد أسىء تقديره بشكل خطير ، فقد كانت التقديرات السابقة المقبولة من جانب الحكومات الغربية وكبار خبرائها ، توضح تفوقا عســـــكريا ساحقا لصالح اسرائيل بمقارنتها بمصر وســـوريا فى الجو وفى نوعية الأسلحة ، وفى المعركة التكنولوجية ..

وقد أسفر القتال الذى شهدته سيناء والجولان عن مفاجأة كبيرة لمعظم الخبراء ، وأن التقديرات أصبحت محل شك .

وقال مراســـــل اليونايتد برس الامريكية فى القاهرة يوم ١٢ اكتوبر ١٩٧٣ تحت عنوان « ميزان القوى تغير لصالح العرب » :

تشير الأوضاع الحالية الى أن اغلب أسلحة الطيران العربية لاتزال خارج المعركة وهى حقيقة تنطوى على احتمالات خطيرة .

وقال دور ميدلتون الخبير العسكرى فى صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ :

لقد اكدت عملية عبور القوات المصرية للقناة أن القوات المصرية قد تطورت كثيرا منذ سنة ١٩٦٧ ، وأيا كانت النتائج فهناك إتفاق عام على أن القتال الدائر حتى الآن قد غير لسنوات قادمة ميزان القوى فى الشرق الأوسط .

وقالت صحيفة ديلى تلجراف اللندنية يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ :

ان نظرية الحدود الآمنة التى تبنتها اسرائيل منذ انشائها حتى الآن بغرض التوسع قد انهارت تماما ، وانه لابد للعقلية العسكرية الاسرائيلية ان تتغير فى ضوء حرب أكتوبر .

ان أسطورة نفسية قد تحطمت هذه المرة ويجب على اسرائيل الآن أن تتخلى عن فكرة أن أمنها يتحقق بمجرد احتلال الأراضى .

وفى اليوم التالى ١٣ أكتوبر ١٩٧٣ قالت جريدة صنداى تلجراف المعروفة بتأييدها لاسرائيل : ان الحرب الدائرة حاليا قد اثبتت خرافة التفوق العسكرى الاسرائيلى ، كما اثبتت أن فكرة اسرائيل عن الحدود الآمنة فكرة خاطئة ، فان القوات الاسرائيلية تتعرض لضربات مريرة داخل المناطق التى كانت تعتبرها أكثر أمانا من حدودها السابقة على حرب يونيو ١٩٦٧ .

وكتبت صحيفة لومانتيه الفرنسية يوم ١٧ أكتوبر تقول تحت عنوان « الاحداث الجارية فى الشرق الأوسط » :

ان الأحداث الجارية فى الشرق الأوسط قد أطاحت بنظرية الحدود الآمنة كما يفهمها حكام تل أبيب ، فقد أثبتت أن أمن اسرائيل لا يمكن ان يكفل بالدبابات والصواريخ ، وانما بتسوية سلمية عادلة توافق عليها الدول العربية .

وقالت صحيفة فرنســية أخرى هى صحيفة كوب يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ :

ان تعبير الحدود الآمنة التى تردده اسرائيل لا يعنى شيئا ، وأن الاحتلال الاسرائيلى للأراضى المعــربية قد قوى فى الدول العربية روح النضال وأن اسرائيل لا تستطيع الحصول على حدود آمنة سواء عن طريق الحرب أو التوسع .

وعلقت صحيفة برافدا السوفييتية يوم ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ تقول .. العبرة الهامة التى يمكن استخلاصها من التطورات الجارية فى الشرق الأوسط واضحة الآن .. تلك العبرة هى بطلان نظــرية الحدود الآمنة التى تروج لها الدعاية الاســرائيلية ، وقد أثبتت الأحداث أن الاستيلاء على الأراضى لا يستطيع ضمان اسرائيل .

وهكذا اثبت خبراء الغرب فى اتفاق تام بطلان وســقوط نظرية الأمن الاسرائيلية .

وقد تناولت معظم كبريات الصحف العالمية سقوط خط بارليف تماما فى الـ ٧٢ ساعة الأولى من حرب اكتوبر .. فقالت وكالة يونايتد برس الأمريكية فى تعليقاتها يوم ١١ أكتوبر ١٩٧٣ :

ان تخلى اسرائيل عن خط بارليف الحصين على الضــفة الشرقية لقناة السويس يعتبر اسوأ نكسة عسكرية أصيبت بها فى تاريخها .

ان الجنود الاسرائيليين الذين اقاموا وراء خط بارليف ..

كانوا يقولون دائما انهم يشعرون باطمئنان تام وانهم آمنون وراء حصن لا يمكن اقتحامه ، والآن اصبح هذا الحصن في أيدى المصريين ..

يضم خط بارليف الذى يمتد على طول القناة ١٠٠ دشمة منزل، ويقال ان كل دشمة منها تكلفت مبالغ طائلة ، وهى مبنية بالفولاذ والخرسانة والأسلاك الشائكة ، وتوجد بأسفلها غرف للنوم والمعيشة ، ومطبخ ومراحيض وكانها غواصة .

ان شعور زائرى خط بارليف خلال السنوات الماضية هو أن الاسرائيليين كانوا آمنين فيه تماما ، ولا يمكن لواحد أن يمسهم وهم فى داخله .

وكان الجنرال بارليف قد اعلن سقوط خط بارليف فى أيدى المصريين وقال ان لديهم على الضفة الشرقية ٤٠٠ دبابة على الأقل ويستطيعون احضار المزيد ، ومن الصعب التكهن متى تنتهى الحرب .

واضاف أن أمامنا طريقا صعبا وعلينا أن نقاتل كثيرا وأن نحتفظ بأعصابنا ونستخدم أقصى ذكائنا حتى نكسب مرة أخرى حافة المر المائى .

وقالت النيوزويك الأمريكية يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ .. انه ثبت تماما أن خط بارليف الحصين لا قيمة له تماما مثل خط ماجينو فى الحرب العالمية الثانية .

وابرزت كل الصحف العالمية تقريبا نجاح الجيش المصرى فى معركة العبور العظيم بصورة ادهشت كل خبراء الحرب فى العالم .

وقالت صحيفة صنداى تايمز اللندنية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ : كانت عملية العبور الى الضفة الشرقية موضع اهتمام كثير من كبريات الصحف العالمية وذلك لشيوع تصور مسبق باستحالة عملية العبور دون خسائر فادحة ، لا يستطيع الجيش المصرى تحملها ، وفى هذا الاطار يمكن أن نفهم كيف خصصت الصنداى تايمز فى عددها الصادر يوم ١٩٧٣/١٠/١٤ مكانا بارزا لتنقل لقرائها وصف مراسلها فى الجبهة لعملية العبور المصرى وتحت عناوين بارزة مثل « فى ١٥ دقيقة كان الجسر يقام على القناة » . كتب مراسلها يقول :

وتحت مظلة المدفعية وفى حماية الضربات الجوية عبر المشاة المصريون فى زوارق المطاط ليكتسحوا مراكز اسرائيلية قد تكون مسيطرة على النقاط المختارة لاقامة الجسور .. ووراء المشاة جاء المهندسون وكثير منهم مزودون بآخر طراز من الجسور القائمة التى يمكن نشرها عبر المياه ، بمعدل ١٥ قدما فى الدقيقة ، وربما يمكن اقامتها فى معظم أجزاء القناة فى ربع ساعة أو اقل .

وقالت اليونايتد برس فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ . ورغم أن الصورة الكاملة لما يجرى على أرض — المعركة لم تتضح حتى الآن .. الا أنه تأكد الكثير من الأمور ، فقد نجح المصــريون فى اجتياح قناة السويس وخط بارليف الحصين وأقاموا رأس جسر يمتد أميالا الى الشرق من الممر المائى وتراجع الاسرائيليون الذين اذهلتهم المفاجأة نحو الأرض العالية شرق القناة .

وتناولت الصحافة العالمية بكثير من التفاصيل حرب أكتوبر واستراتيجية العرب وشجاعة المقاتل المصرى والعربى خلال أيام الحـــرب ..

قالت صحيفة ديلي ميل البريطانية فى عددها الصادر فى ١٢ اكتوبر ١٩٧٣ .. ان الطريقة السريعة والفعالة التى عبر بها المصريون قناة السويس كانت انذارا مخيفا .. ولن يستطيع الاسرائيليون تحدى العرب الى ما لا نهاية .. لقد محت هذه الحرب شعور الهوان عند العرب وجرحت كبرياء اسرائيل .

ونقلت وكالة اليونايتدبرس الأمريكية لمراسلها فى الشرق الأوسط يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ .. ان معارك الدبابات التى تدور رحاها فى الشرق الأوسط الآن قد وصلت وتجاوزت فى بعض الحالات أكبر معارك المصفحات على الاطلاق التى وقعت على مشارف ستالينجراد خلال الحرب العالمية الثانية .

وقالت صحيفة نيويورك تايمز فى ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ على لسان خبيرها العسكرى .. لقد أظهرت الحرب أن العرب قادرون على تشغيل الاسلحة الحديثة المعقدة فى ميدان القتال ، ولذا كان أهم تطور تكنولوجى هو استخدام القوات العربية للصواريخ بكفاءة ، كما تشير التقارير التى وصلت أن الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة .

بينما قالت الاوبزرفر البريطانية فى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ .. ان مصر قد لحقت اسرائيل وسبقتها تكنولوجيا فى ميدان الصواريخ والاليكترونيات .

وكتب جوزيف كريج مراسل اليونايتدبرس الأمريكية فى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ . ان معركة الدبابات التى تدور رحاها الآن لليوم الخامس على التوالى قد وصفت بأنها واحدة من اكبر معارك المدرعات فى التاريخ وبالتأكيد منذ الحرب العالمية الثانية .

وقال مراسل رويتر ــ الوكالة البريطانية ــ فى ٢٥ يناير ١٩٧٤ .. ان الأمر الرئيسى الذى تكشف عنه الحرب هو أن قوات المدرعات يمكن ابطاء تقدمها أو حتى وقفها من جانب المشاة المسلحة تسليحا مكثفا بالأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات .

وفى مقال كتبه الخبير العسكرى الأمريكى دور ميدلتون فى صحيفة نيويورك تايمز بوم ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ قال .. ان القوات الجــوية العــربية قد ظهرت على مســتوى عال لم يكن متوقعا .. حيث أظهر الطيارون انهم لا يفتقرون الى الجسارة كما يتفق الخبراء فى شئون الطيران على ان القتال فى جبهة سيناء قد اظهر قدرة مصر على توفير دفاع جوى متماسك لقواتها البرية .

وقال نفس المعلق يوم ١٨ أكتوبر فى نفس الصحيفة .. ان معركة سيناء هى المعركة الكبرى .. وان المصريين قد أظهروا ثقة جديدة بأنفسهم فى الانتقال من القتال الثابت الى القتال المتحرك ضد المدرعات الاسرائيلية .

واشادت أكثر الصحف الغربية باستراتيجية مصر فى حرب اكتوبر .. فقالت صــحيفة الاوبزرفر البريطانية يوم ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ .. اشار العرض الذى أعلنته مصر بعقد مؤتمر للسلام أن اســتراتيجية مصر هى التحدث والقتال فى آن واحد حتى قبل محادثات موسكو ، والواضح أن القتال يعلو الآن على المحادثات ومهما يحدث فى سيناء حيث تجرى معارك ضارية فى القطــاع الأوسط .. فان الجيش المصرى يبدى كل دليل على المضى قدما فى المعركة ..

وابرزت الصحف العالمية شجاعة المقاتل المصرى الذى حطم الغرور الاسرائيلى فى حرب أكتوبر .. وقالت صــحيفة التايمز البريطانية فى اليوم التالى لبداية الحرب ٧ أكتوبر ١٩٧٣ ..

كانت الصـــــورة التى قدمتها الصـــــحافة العالمية للمقاتل العربى عقب حرب ١٩٦٧ هى صورة مليئة بالســـــلبيات وتعطى الانطباع باستحالة المواجهة العسكرية الناجمة من جانب العرب لقوة اسرائيل العسكرية وعلى هذا الضوء يمكن أن نفهم مقدار التغير الذى حدث عقب أن اثبت المقاتل العربى وجوده وقدراته ، ان الجندى المصرى يتسم بقدر كبير من الشجاعة والاقدام اذا هيئت له الظروف المناسبة .

وقالت نفس الصحيفة يوم ١١ أكتوبر ١٩٧٣ انه واضح أن العرب يقاتلون ببسالة ليس لها مثيل ومن المؤكد أن عنف قتالهم له دور كبير فى انتصاراتهم وفى نفس الوقت ينتاب الاســــرائيليون احساس عام بالاكتئاب لدى اكتشافهم الأليم الذى كلفهم كثيرا .. ان المصريين والسوريين ليسوا فى الحقيقة جنودا لا حول لهم ولا قوة وتدل الدلائل على أن الاسرائيليين كانوا طوال الأسبوع الماضى يتقهقرون على طول الخط أمام القوات المصرية والسورية المتقدمة .

بيما قالت الفاينانشيال تايمز البريطانية يوم ١١ أكتوبر ١٩٧٣ .. أن الاسبوع الماضى كان أسبوع تأديب وتعذيب لاسرائيل ، ومن الواضح أن الجيوش العربية تقاتل بقوة وشجاعة وعزم ، كما أن الاسرائيليين تملكهم الحزن والاكتئاب عندما وجدوا أن الحرب كلفتهم خسائر باهظة وأن المصريين والسوريين ليس كما قيل لهم غير قادرين على القتال .

وقالت صحيفة ديلى ميل البريطانية فى نفس اليوم ١١ أكتوبر ١٩٧٣ .. ان الكفاءة العالية التى أبداها المصريون فى عبورهم السريع لقناة السويس واكتساحهم الخاطف لخط بارليف انما هو تحذير صارم من العرب يشير الى أنهم ليسوا من الضعف بحيث يمكن أن تفرض عليهم توصية لا يرضونها .

وقالت التايمز البريطانية فى نفس اليوم أيضا ١١ أكتوبر ١٩٧٣ .. ان المأساة فى هذه الحرب هى أن اسرائيل لاتزال تحاول أن تلقن العرب درسا ، وحملهم على الاعتراف بقوتها ويجب بدلا من أن تستنفد قوتها فى محاولة تلقينهم درسا أن تقدم مقترحات للسلام على أساس اعترافها بأن العرب أيضا أقوياء .. وأن قوتهم تزداد يوما بعد يوم كما أنهم أيضا يخافون على أمنهم مثلما تخاف اسرائيل على أمنها ..

وأضافت الصحيفة أن اسرائيل ارتكبت عدة اخطاء جسيمة منها تهوينها من تجهيزات المصريين والسوريين ، كما أنها فوجئت بارتفاع القدرة القتالية للجيوش العربية .

وذكرت ديلى تلجراف اللندنية يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ .. أن اسرائيل تواجه العرب كأعداء أكثر تصميما على النصر وتواجه حربا أطول من أن تتحمل استمرارها .. فى الوقت الذى يستطيع العرب فيه أن يخسروا حربا بعد حرب ويستمر بقاؤهم ، فان اسرائيل لا تتحمل أن تخسر أكثر من حرب .

وقالت صحيفة الأوبزرفر البريطانية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ .. هناك شىء لم يفهمه الا القليلون وهو تغير نوعية صغار الضباط واقامة جهاز حرب مختلف بكوادر أفضل من الجنود المدربين تكنولوجيا واصرار الجيش على محو آثار الهزائم السابقة واستعادة الأجزاء المحتلة من أرض الوطن .

وكان أداء المقاتل المصرى والسورى فى هذه الحرب والروح المعنوية العالية التى اتسموا بها خلال أيام الحرب .. هى أكبر مفاجأة للاسرائيليين وللعالم كله .

وذكرت صحيفة النيوزويك الأمريكية يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ عن احد القادة العسكريين قوله : ان العرب يحاربون هذه المرة .. كما ذكر نقلا عن أحد الخبراء العسكريين قوله (على اسرائيل أن تقدر ما اذا كان تمسكها بقطاع من الصحراء لا تمنكه يساوى عملية ابادة جيل كامل من اليهود) .

وقالت صحيفة سويغيرينوس الالمانية فى يوم ١٥ اكتوبر ١٩٧٣ .. ان الحرب الحالية حطمت أسطورة التفوق الاسرائيلى واكدت نجاح العربى وحقيقة أنه لا يمكن للعرب أن يعودوا الى خطوط القتال قبل (٦ أكتوبر الماضى) .

وقالت الأسوشيتدبرس الأمريكية بقلم معلقها ولبار هاربر يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ .. لقد واجه الاسرائيليون خصما يتفوق فى كل شىء ويستعد لترك الحرب تتحول الى حرب استنزاف طويلة كذلك واجهت اسرائيل فى نفس الوقت خصما أفضل تدريبا وأمهر قيادة ، وكان عليها أن تواجه الحرب على جبهتين .

وكتب الكولونيل ليونتيف المعلق العسكرى لصحيفة النجم الأحمر السوفييتية يوم ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ يقول .. تؤكد التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط ارتفاع القدرة القتالية للعرب وتصميمهم على استعادة الأراضى العربية التى تحتلها اسرائيل .. وقد أصبح العرب يمتلكون الآن عنصرا يستحيل النصر بدونه وهو الثقة فى عدالة قضيتهم وفى قوتهم ، وذلك فى الوقت الذى اهتزت فيه الثقة داخل جيش اسرائيل ، وأن الأحداث الأخيرة تشير بوضوح الى تصميم العرب على تصفية آثار العدوان الاسرائيلى واستعادة الأراضى المحتلة .

وقالت صحيفة تسايتونج الألمانية الشرقية فى ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ .. ان الكفاح الذى يخوضه العرب ضد اسرائيل كفاح

عادل ، أن العرب يقاتلون دفاعاً عن حقوقهم ، واذا حارب المرء دفاعا عن أرضه ضــد معتد .. فانه يخوض حربا تحريرية ، أما الحرب من أجل الاســـتمرار في احتلال أرض الغير فانها عدوان ســـافر ..

وكتبت صحيفة ديلى تلجراف البريطانية يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ تقول .. مهما كانت خسائر العرب فقد استردوا ثقتهم السياسية . ومهما تكن النتائج فى ساحة القتال فان الوضع فى الشرق الأوسط قد تغير بصورة تامة ..

وقالت صحيفة تريبيون البريطانية يوم ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ .. لقد أصبحت الصحف البريطانية تنظر بعين الاحترام للبيانات التى أصدرها المتحدثون العرب عن سير القتال ورفضـــهم المبالغة فى التصريحات بعد الانتصارات التى حققوها على اسرائيل ، تلك الانتصارات التى أدهشت الجميع .

وهكذا كان العالم يرى حرب أكتوبر التحريرية على حقيقتها الرائعة بعيون صحافته حتى الموالية منها لاسـرائيل والمعروفة بتأييدها للصهيونية ..

كل القوات الى أرض القمر

السماء من حولى اشبه بسجادة جهنمية هائلة .. خرافية .. متسعة لا نهائية .. بينما تحولت المنطقة الممتدة غرب وشرق قناة السويس والى مسافة ٢٠ كم تقريبا .. مهرجانا دمويا يشـــتعل بالآلاف من احدث أنواع القذائف الصاروخية ومدافع الميدان المتعددة الأبعاد والثقيلة .. المتبادلة بين المدفعية المصرية بحشدها الهائل، والقوات الاسرائيلية فى المواقع الامامية بخط بارليف والخلفية ، والقوات الميكانيكية المتحركة التى أسرعت من عمق سيناء لانقاذ خط بارليف، .. الذى تعرض للهجوم القاسى بعد الظهر من المشاة المصريين الذين تساندهم قوات المدفعية المصرية الجبارة .

الحرب بدأت .. كل شىء من حولى تغير بسرعة غريبة مثيرة .. ورهيبة .. الرجال من أبناء مصر الذين يديرون المدافع ويصوبون الصـــواريخ ويقودون الدبابات والطائرات .. والذين رأيتهم اليوم فى معركة عبور القناة .. يحملون الأسلحة والذخائر ويقفزون على الشاطىء الشرقى ، ويدمرون الألغام والخطـــوط الكهربائية ومواسير النابالم .. ويهاجمون خط بارليف الحصين .

هؤلاء الرجال استطاعوا أن يغيروا تماما وفى خلال الـــ ١٠ ساعات الأولى من بداية المعركة خريطة جبهة القتال .. جيش مصر انطلق من الغرب الى الشرق .. شاهدت المعركة من اللحظة الأولى حتى اللحظة الأخيرة .

رأيت قواتنا وهى تبنى وتقيم فى سرعة مذهلة ، الجسور لكى تعبر عليها الدبابات والمدرعات التى بدأت منذ نحو ٤ ساعات تصل الى الضفة الشرقية .. وبتأكد وجودها على رمال سيناء وتشارك فى تدمير مواقع خط بارليف .. خط الموت الاسرائيلى .. لقد رأيت الحلم الذى عشت من أجله سنوات يتحقق فى ساعات .. ولم يكن ما رأيت جسرا واحدا .. انه عدة جسور .. رأيت الجسور تقام وسط الموت والجحيم .

لقد كان القصف الأول أشبه بالزلزال الأرضى .. قصفات بكل أنواع المدفعية والصواريخ .. كانت سرعة النيران رهيبة .. قذائف مدفعية الميدان بعبدة المدى ، والقذائف الصاروخية وهى ترتفع فى السماء وتتساقط فوق المواقع الاسرائيلية على الضفة الشرقية لقناة السويس والمواقع الأخرى الخلفية .

وما عاد الانسان مثلى فى هذا الجحيم يستطيع أن يميز الفروق بين الأصوات . أو نوع الأسلحة . ومن هذا الهزيم والجو المرتعد الذى صنعته الرماية المتواصلة من هذه المئات من المدافع والصواريخ .. كان من المستحيل لجهاز التسجيل الصغير الذى أحمله أن يتحمل ذلك الضجيج المخيف .. الذى تحول خلاله صوت كل المدافع الى صوت واحد ، تجمعت فيه كل الرعود الصناعية التى يصنعها أهل الأرض .

مئات المدافع تزمجر وهى تقذف ما فى قلبها من دمار وموت .. فى شكل قنابل تتساقط بالآلاف فى ايقاع مرعب مميت .. بينما كان جنود العدو يتخندقون فى أعماق الأرض .. داخل القلاع الحصينة

كان صوت المدفعية الجبار مسموعا بلاشك .. فى سراديب خط بارليف الحصين .. كنت أشعر أن صوت العقاب يصل بالفعل حتى النخاع فى أجساد أبناء صهيون .

وقبل بداية المعركة بـ ٣٠ دقيقة .. لم يكن أحد منا يستطيع أن يزعم أنه يعرف ساعة الصفر أو لحظة اندلاع الحرب .. رغم متابعتى الدقيقة لما يجرى فى جبهة القتال .. كنت أعرف فقط أننا نستعد فى القوات المسلحة لشـن هجوم كبير عبر القناة لتدمير خطوط الدفاع الاسرائيلية .. وأن ما يدور منذ أسابيع ووصل الى الذروة فى المناورات خلال الايام الماضية .. هو استعدادنا لهذه العملية .. أما متى يبدأ هذا الهجوم .. لا أحد منا يعرف موعده .

وبعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ، كان كل شىء هادىء تماما .. عند قناة السويس .. الصمت الشامل العميق .. العادى والطبيعى جدا منذ توقفت حرب الاستنزاف .. يسود ضفتى القناة .. ولم يكن هناك ما يشير على الاطلاق الى أن هذه المياه الزرقاء الساكنة الوادعة .. ستموج بالرجال والنيران والموت وستكون ميدانا لما أراه الآن ..

كانت الشمس تستعد لتاخذ طريقها نحو الغرب ، بينما تركت كل أشعتها وحرارتها فوق مواقع خط بارليف ، وعلى فتحات المدافع داخل الخط الحصين ، ولم تكن تلك الساعة من النهار هى بالتأكيد الموعد المعتاد أو المناسب فى نظر خبراء الحرب .. لشن هجوم ، وهم الذين اعتادوا على أن يبدأ أى هجوم عسكرى خلال حربين عالميتين وعدة حروب صغيرة ، اما فى أول ضوء صباحا ، أو فى آخر ضوء عند الغروب .. على ان يبدأ بعد ذلك دعم الهجـــوم وتوسيع نطاقه اما ليلا أو فى خلال النهار ..

اما أن يبدأ الهجوم فى تلك الساعة الساخنة وفى وضـح النهار ، فذلك ما لم يخطر على بال أحد بكل التأكيد ، بما فى ذلك كل جنود العدو داخل الخط الحصين .. أو قياداته العســكرية الواثقة من قدرتها العسكرية المتفوقة ، وقدرة وتحصين خطوطها

الدفاعية والواثقة ايضا من منطق الصلف والغرور ، اننا أيضا غير قادرين على الهجوم .

وعندما أشارت عقارب الساعة الى الدقيقة الخامسة بعد الساعة الثانية.. حدث ما لم أتوقعه كغيرى من الذين يعيشون هنا منذ ٦ سنوات و ٤ شهور .. سمعت فى البداية أزيز طائرات .. تصورنا أن العدو سيقوم بغارة جوية مفاجئة ، غير أننى فى الدقيقة التالية رأيت الطائرات المصرية ، لم أعرف عددها فى البداية ، كانت تشكيلات متعددة .. عبرت القناة فى لحظات لكى تبدأ افتتاحية الحرب .

فى نفس اللحظة ، قتلت المدفعية المصرية الجبارة صوت الصمت اللعين الذى كان يربض على صدورنا منذ وقف اطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ .. لم أستطع تحديد اتجاهات القصف الرهيب فى البداية .. غير أننى تأكدت فى الدقائق التالية أن الجحيم فتح كل أبوابه من غرب القناة . وان المدفعية المصرية تضرب خط الدفاع الاسرائيلى فى نفس الدقيقة .. الساعة الثانية والدقيقة الخامسة، كان المشهد على الضفة الغربية للقناة مثيرا الى حد الذهول ، بينما كانت المدافع المصرية قد بدأت وفى كثافة ليس لها مثيل ، تدك مواقع خطوط الدفاع الاسرائيلية ، بدأت طلائع العبور الأولى وهى عبارة عن مجموعات من رجال الصاعقة ، وما يطلق عليه الأطقم الخاصة لاقتناص الدبابات ، تعبر القناة فى سرعة مذهلة ، وتزرع الألغام فى مواقع (مصاطب) الدبابات لكى تشل حركتها (بكمائن) التدمير وتمنعها من التدخل فى عمليات اقتحام واحد من أخطر الموانع العسكرية فى التاريخ وهو المجرى الملاحى لقناة السويس .

لم تكن عقارب الساعة قد غيرت التوقيت دقيقة واحدة عندما خرج الرجال فجأة .. آلاف الرجال من بين المزارع ومن مخارج

الطرق ، ومن داخل المواقع وعلى طول الضفة الغربية للقناة .. وفى صمت شديد وبدون ضجة .. بدأت أعداد كبيرة من رجال سلاح المهندسين تنزل الى مياه القناة داخل قوارب ضــــخمة من المطاط .. وفى الدقائق التالية كان نحو ١٠ آلاف رجل من المشاة ورجال المهندسين ورجال الصاعقة يضعون أقدامهم داخل القوارب يحملون أسلحتهم .

وفى الساعة الثانية والدقيقة العشرين بدأ طوفان من الرجال طلائع الجيش الثانى والثالث الميدانى يستخدمون أكثر من ألف قارب عملية الاقتحام ، لم تستغرق عملية العبور أكثر من ٨ دقائق بينما كانت نيران المدفعية المصرية الجبارة تصنع سدا خرافيا بين مواقع خط بارليف ورجال العبور .

وبدأ هذا العدد من الرجال وشباب مصر فى تسلق الساتر الترابى المرتفع واقتحام دفاعات العدو الحصـــــينة وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات والأسلحة الخفيفة ، وأيضا الســــلاح الأبيض لاستخدامه عند اللزوم .. وارتفعت أصوات الرجال .. الله أكبر .. الله اكبر .. وعادت أعلام مصر ترتفع على رمال سيناء من جديد ..

فى لحظات ، ارتفعت أعلام مصر على الضفة الشرقية للقناة .. كانت موجات العبور البرمائية تقتحم القناة بينما كانت القوات البرمائية تعبر البحيرات المرة الى الشرق من الطرف الجنوبى لبحيرة التمساح ، وكانت المدفعية ما تزال تقصف الخط الاسرائيلى بنفس المعدلات والكثافة التى بدأت بها فى نفس الوقت ، كان رجال سلاح المهندسين قد نجحوا تحت ستار نيران المدفعية وهجوم قوات المشاة فى فتح الثغرات والمرات فى الســـاتر الترابى المرتفع (الكثيف الرمال) باستخدام (مدافع المياه) .

وفى الوقت الذى انتهى رجال المهندسين من فتح أول ممر فى الساتر الترابى ، كانت وحدات المهندسين على الضفة الغربية قد بدات فى اقامة الكبارى والمعديات فوق مياه قناة السويس لتصنع عدة طرق لعبور القوات الرئيسية والدبابات عند المنطقة رقم ٦ بالاسماعيلية والفردان والقنطرة وطوسون والدفرسوار والشط والكاب ورأس العش والبلاح والسويس فى وقت واحد .. كبارى ثقيلة لعبور المعدات والمجنزرات والمدرعات ، واخرى خفيفة لعبور الرجال من المقاتلين .

تمر ساعتان، كانت المدفعية المصرية تقصف مواقع العدو فى الساعة الأولى منها بمعدل يصل الى ١٥٠٠ قذيفة من كل الأحجام فى الدقيقة .. وفى الساعة الثانية كان مهرجان المدفعية لازال مستمرا .. وان كانت معدلات القصف أصبحت أقل كثافة .. فى الوقت الذى أصبحت فيه المجموعة الأولى من كبارى العبور حقيقة واضحة .

كنت اتمنى أن أرى جسرا واحدا فوق القناة اعبر عليه إلى سيناء الأسيرة .. الآن رجالنا يبنون الـ كثير من الجسور فى وقت واحد ، ولا يستطيع جيش صهيون أن يمنعهم ، بينما كانت موجات العبور مستمرة بحيث أصبح على الضفة الشرقية للقناة ما يصل الى فرقة كاملة من رجال المهندسين الذين نفذوا بمهارة فتح الثغرات وتدمير وسائل الدفاع ومواقع الموت التى زرعها العدو على طول الطريق الضيق الذى يفصل بين الساتر الترابى ومواقع خط الدفاع الأول (بارليف) .

فى ذلك الوقت ، كان رجال الصاعقة المصرية الذين عبروا القناة فى بداية عملية العبور ، تمكنوا من قهر الســــاتر الترابى وتسلقوه بالحبال وبالأيدي والأظافر ، وتمكنوا من الاستيلاء على

المواقع (مصاطب) المخصصة للدبابات .. وتمكنت عدة مجموعات منهم من الاسراع الى خط الدفاع الاسرائيلى الثانى حيث زرعوا الألغام فى طريق الدبابات ، وأعدوا الكمائن (والمصايد) لاقتناص دبابات العدو التى كانت قد بدأت حركتها الأولى للاقتراب من الساتر الترابى لانقاذ مواقع بارليف المحاصرة والتى كانت تتعرض لقصف مدمر ومركز .

وكان رجال المشاة المصريين يشاركهم رجال الصاعقة قد أحاطوا بكل مواقع خط بارليف تقريبا من الطريق الشمالى للقناة حتى لسان بور توفيق ، وبدأت القلاع تتهاوى واحدة بعد الأخرى ودار القتال الرهيب حول المواقع والنقط القوية والدشم المساعدة ، واستخدمت الأسلحة الخفيفة والصغيرة كما اســــتخدم السلاح الأبيض فى معارك فردية وجماعية داخل قلاع جيش اســــرائيل (الشجاع) .

بينما أسرع رجال المشاة الميكانيكية المدججين بالأســــلحة الخفيفة و (الآر بى جى) والقنابل اليدوية ، يعاونهم رجال الصاعقة فى الهجوم على خط الدفاع الاســــرائيلى الثانى الذى يقع على مسافات تتراوح بين ٣٠٠ متر و ٥٠٠ متر و ٤ كيلومترات شرقا الضفة الشرقية للقناة لصد وتدمير هجمات العدو المضادة التى كانت تستهدف ضرب قوات العبور .

كان العدو قد افتقدته المفاجأة توازنه والشلل أصاب مواقعه وعندما انطلقت نيران خط بارليف لم تســـــتطع ان تمنع تدفق قواتنا .. كان ضربها مذعورا لدرجة ان المواقع التى كانت مزودة بخزانات النابالم لاستخدامها ضد قوات العبور فشلت تماما .. لم تتمكن من استخدام النابالم ذلك أن موجات العبور الأولى قامت بافساد الخزانات حتى لا تستخدم نهائيا .. أغلقتها بالاسمنت ولم تعد صالحة للاستخدام .

وعندما بدأت القوات الرئيسية فى عبور القناة .. كان المشهد قد أصبح بحتاج الى مائة من كاميرات السينما ومائة من المراسلين العسكريين لكى يسجلوا كل التفاصيل .. قائد كل فرقة وكل كتيبة وكل فصيلة يتقدمون الرجال فى ثقة واعتداد وقوة وروح معنوية فى القمة ، وارتفعت صياحات الله أكبر للمرة المليون .. ووصل صوت آلاف الرجال الى سكان باريليف قويا مدويا .. واهتزت الأرض تحت أقدام الرجال بينما ارتجفت مياه القناة .

وفى الوقت الذى كان فيه ايقاع الحرب يزداد عنفا على ضفتى القناة وعلى طول خط الدفاع الاسرائيلى .. وداخل مواقع الفولاذ المدججة بأحدث الأسلحة فى العالم وبكل وسائل الدمار الامريكية ، ويتأكد الوجود العسكرى المصرى ويزداد تأثيره فى كل دقيقة .. كانت أعداد كبيرة من طائرات الهليكوبتر قد أفرغت حمولتها من رجال الصاعقة فى عمق سيناء شمالا وجنوبا بين الجبال والممرات والمواقع الاستراتيجية .. وبعد ساعات قليلة من بداية الاقتحام ، كان رجال الصاعقة ينقضون على أهدافهم فى أعماق العدو .. فى نفس الوقت كانت مجموعات منهم تزحف على مياه البحرين الأحمر والمتوسط لتصل الى أهدافها على سواحل سيناء .

وقاتل رجال الصاعقة فى مقدمة الجيشين الثانى والثالث الميدانيين قتالا مستميتا على الطرق والمضايق ضد مدرعات العدو التى حاولت الاقتراب لاجهاض عملية العبور وانشاء رؤوس الكبارى فواجهوا دبابات العدو بأسلحتهم الخفيفة المضادة للدبابات وبقنابلهم اليدوية .. بل والقوا بأنفسهم فى طريق تقدم العدو وعلى ظهورهم الألغام المضادة للدبابات كى تنفجر فوق أجسامهم مدرعات العدو ، وتركوا على رمال سيناء الكثير من الدماء الزكية ، تشهد أن أبناء مصر يحررون كل شبر من سيناء الأسيرة بالدماء والأرواح .

وشن رجال الصاعقة عدة هجمات مركزة فى عمق سيناء وجنوب شبه الجزيرة فى « أبو رديس وبلاعيم وأبو زنيمة والطور »، وأجبروا العدو على دفع قوات كبيرة من المدرعات لحماية المنشآت الحيوية ، ونجح رجال المشاة فى محاصرة عدة وحدات قوية للعدو فى جنوب سيناء وخففت بذلك الضغط على قواتنا فى الشمال خلال عمليات انشاء رؤوس الكبارى .

بينما كان الهجوم البرى المصرىالذى تسانده المدفعية بكثافتها يدمر الخط الحصين على الجانب الآخر من القناة ، وتتقدم قوات العبور شرقا .. كانت البحرية المصرية تتقدم فى هدوء وثبات ٪ حيث تولت لنشات الصواريخ توجيه عدة ضربات مركزة وموجعة الى تجمعات العدو وقواته المتمركزة فى منطقة (رمانة) وهى قرية تقع فى مواجهة الساحل الشمالى من سيناء .

فى نفس الوقت فى اقصى الجانب الآخر من سيناء عند البحر الأحمر ، كانت القطع البحرية المصرية فى نفس التوقيت ، تضرب قوات العدو فى قطاع شرم الشيخ فى أقصى جنوب سيناء .. بينما كانت المدفعية الساحلية فى بورسعيد تضرب الحصن الاسرائيلى الواقع عند الكيلو ١٠ جنوب بور توفيق .. ونفس المدفعية الساحلية عند السويس تقوم بضرب تجمعات العدو على ساحل سيناء ٪ كما تولت الصواريخ البحرية توجيه ضربة صاروخية الى منطقة رأس سدر ، وتشتعل الحرائق فى الشمال والجنوب فى وقت واحد داخل مواقع العدو ..

احكمت القوات المصرية قبضتها على خط الموت الاسرائيلى بعد ٥ ساعات من بداية الاقتحام وفى كل ١٠ دقائق كنا نتلقى خبرا عن انهيار موقع وتدمير دشمة أو نقطة قوية أو استسلام مجموعة

من جنود العدو ، ولم تترك القوات المصرية اى فرصة للعدو لانقاذ الخط الحصين .. بينما كان العدو يبذل جهده الرئيسى لصـــــد الطوفان المصرى والوصول الى خط المياه بأى ثمن بدفع قواتنا الى قناة السويس مرة أخرى .

وعندما كانت اذاعة القاهرة تدق تمام الثامنة .. اى بعد ٦ ساعات من بداية الهجوم المصرى كانت قواتنا قد تمكنت من السيطرة التامة تقريبا على مواقع خط الدفاع الاسرائيلى .. واصبح تحت حصار النيران المصرية والآلاف من رجال قوات العبور .

وفى نفس هذه الساعة كانت القوات المصـــــرية المدرعة وحدات الصواريخ وقوات المشاة الميكانيكية تندفع بمعدلات عالية جدا الى قلب سيناء ، وبتأكد وجودها الكثيف ، وتنتشر وتتقدم فى اتجاه عدة محاور ، وأصبحت جسور العبور تمتد من رأس العش فى أقصى الشمال وجنوب بورسعيد وحتى الشط جنوب السويس .. فى الطرف الجنوبى من قناة السويس ، ولم يعد هناك عائق مائى .. وانهار السد الترابى الكبير وتحطمت الأسلاك الشائكة وفتحت الثغرات فى كل مكان ، ووجدت القوات المصرية طريقها الى الأمام ، بينما كان الآلاف من الرجال يحيطون بقلاع الموت الاسرائيلية وكانت ٦ ساعات رهيبة .. قاسية .. لكنها رائعة ..

لو أن أحدا تخيل أو تصور ما حدث فى خلال تلك الساعات الـــ ٦ قبل بداية العبور ولو بدقيقة واحدة ، ما وجد انسانا واحدا يصدقه .. فى تلك الساعة ، والناس فى القاهرة يسمعون فى نشرة أخبار الساعة الثامنة .. كان على أرض سيناء ما بين ٧٠ الى ٨٠ الف مقاتل تمكنوا خلال ١٢ موجة من العبور والاقتحام من مهاجمة كل مواقع خط بارليف بدون استثناء ، بمواجهة ١٧٠ كيلومترا ا

وتمكنت قوات العبور المصرية من الاستيلاء على نحو ١٥ نقطة قوية للعدو على طول الضفة الشرقية ، واحكمت سيطرتها وحصارها الشامل على باقى النقط والمواقع ، والاستيلاء على رؤوس الكبارى الى مسافة تصل الى ٤ كيلومترات .

فى تمام الساعة الثامنة مساء كانت خسائر العدو قد حددت باكبر قدر من الدقة .. كانت نتائج الضربة الأولى التى بدأت فى الافتتاحية الأولى للحرب قد حققت الأهداف الأساسية منها .. واشاعت الفوضى والارتباك بين صفوف الجيش الاسرائيلى وقياداته وافقدته السيطرة والتوازن تماما وحولت مواقعه داخل سيناء الى جحيم من النيران ..

ومن بين نتائج هذه الضربة تدمير ٣ مطارات فى دفعة واحدة هى المليز وراس نصرانى وتمادة و ١٠ مواقع صواريخ (أرض جو) من طراز هوك و٣ مواقع رادار ومراكز توجيه وانذار و ٣ مناطق للشئون الادارية الأساسية واكبر مواقع العدو الحصينة فى شرق بور فؤاد ، ومحطتا الاعاقة والشوشرة فى منطقتى أم خشيب وأم مرجم .

وتمكنت الدفاعات الجوية (الصواريخ) بالاشتراك مع القوات الجوية من اسقاط ٢٧ طائرة من الفانتوم والسكاى هوك وأنواع أخرى ، وفى المعارك البرية الأولى ٦٠ دبابة ضربت أثناء الهجوم على خط الدفاع الاسرائيلى أو خلال محاولات العدو التقدم من الخط الخلفى لانقاذ حصون بارليف أثناء عمليات الاقتحام .

وكانت الخسائر فى الأفراد كبيرة ، ولم يكن من الممكن حصرها .. فهناك ١٥ موقعا حصينا استولت عليها القوات المصرية وباقى المواقع تحت الحصار ، ولاتزال المعارك دائرة حولها أو داخلها .

قبلَ الغروب بدأت اسرائيل تستخدم ذراعها الطويلة .. سلاح الرعب فى كل حروبها السابقة قواتها الجوية المتقدمة جدا والمجهزة بأحدث أجهزة العصر فىترسانة السلاح الاسرائيلى بالذات ، جاءت الذئاب الاسرائيلية ، وكان فى انتظارها غابة كثيفة تخرج منها صواريخ الموت اللامعة .. بدأت سيمفونية الموت بين السماء والأرض .. وتهرب الطائرات الاسرائيلية وتعود .. ثم تعود فتهرب وفى كل مرة يسقط عدد من الطائرات ، الذراع الاسرائيلية الطويلة تضرب بعنف والصواريخ المصرية تنازلها وتكيل لها الضرب والحصار .

وتبلغ عدد الطلعات التى قام بها طيران اسرائيل قبل الثامنة مساء السبت ما يقرب من ٥٠٠ طلعة ، تتوقف غارات العدو لوقت قصير وتعود مرة أخرى .. وهذه المرة كثف العدو هجومه الجوى بأكثر من ٢٦٠ طائرة مرة واحدة .. بدأت هجومها على قواتنا على ضفتى القناة .. وحول ،واقع بارليف والقوات التى كانت تتقدم فى داخل سيناء ..

غير أن سلاح الرعب المصرى المتمثل فى غابة الصواريخ كسب الجولة كلها فى مواجهة الفانتوم والسكاى هوك وغيرها من الطائرات المتقدمة .. وتحول الليل عند قناة السويس وغرب سيناء الى نهار يشتعل بالالوان الحمراء .. المنطقة فوق القناة اشبه بستارة جهنمية ، وهكذا شهدت بنفسى بداية النهاية لذراع اسرائيل الطويلة واكثر أسلحتها رعبا خلال السنين الماضية .

كان هدف العدو القيام بضغط عسكرى سريع وشامل ضد قواتنا لوقف تقدمها ودفعها نحو القناة ، وفى نفس الوقت ضرب جسور العبور التى أقيمت لوقف وصول الامدادات والمزيد من القوات المصرية ، ووصلت طائرات العدو الى قناة السويس ، وكانت قواتنا تعد لها مفاجأة أخرى صاعقة ، دخلت طائرات العدو

داخل مظلة الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات التى انطلقت كثيفة فى وقت واحد .. وتتساقط طائرات العدو فى سرعة ، وكانت قوة الدفاعات الأرضية عنيفة ومؤثرة ، وفشلت الموجات الأولى من الطائرات الاسرائيلية وهربت باقى الطائرات واستمرت القوات المصرية فى عبور القناة فوق الجسور .

وعلى الضفة الشرقية للقناة ، كان العدو رغم خسائره العالية يحاول التقدم مستميتا لمنع قواتنا المدرعة من التقدم ووقف وحدات المدفعية المصرية التى كانت قد بدأت تنتشر وتأخذ مواقعها ، وبسرعة فائقة على ارض سيناء ، ومن ثم تبدأ فى التعامل الفورى مع وحدات العدو المهاجمة .. بينما كان جنود العدو الذين مازالوا احياء داخل المواقع الحصينة فى حالة ذهول وهربوا الى الادوار الأرضية داخل المواقع يتحصنون فى داخلها خوفا من مواجهة الجيش المصرى .

وكانت قواتنا قد نجحت تماما فى اقامة ١٠ جسور كبيرة و ١٠ كبارى مشاة الى جانب الكثير من المعديات ، قواتنا تدافع عن كل هذه المعابر جيدا .. وأن محاولات العدو ضرب الجسور خلال الليل فشلت تماما .. والقوات المصرية تتدفق من فوق هذه الجسور حتى الآن الى قلب المعركة الرئيسية التى بدأت منذ ساعات داخل سيناء وعلى عدة محاور وحول خط الدفاع الثانى والنقط والمواقع الاسرائيلية القوية فى القطاعات الثلاثة للجبهة فى الشمال والجنوب والقطاع الأوسط .

كنت أول مراسل عسكرى مصرى يصل الى جبهة القتال فى سيناء .. عبرت قناة السويس فى السادسة والنصف من صباح اليوم الثانى ٧ أكتوبر ، كان مرافقى أحد ضباط الجيش برتبة رائد .. بينما كان يرافقنا مع آخرين من المراسلين الأجانب من يمثلون الصحف الأمريكية والفرنسية والبريطانية .

عند وصولنا الى مكان العبور .. وقفت أمام جسر طوسون أحد الجسور الكبيرة العشرة التى اقامتها القوات المصرية .. تأملت مياه القناة الهادئة .. وقواتنا الموجودة غرب القناة والمتخندقة فى مواقع الدفاع الجديدة على الضفة الشرقية للقناة .. والطريق الذى تم تجهيزه وسط التراب لتعبر عليه .. انها حقيقة تراها العيون لأول مرة منذ عام ١٩٦٧ ، كانت أصوات المعارك القوية والبعيدة تصل الى اسماعنا كأنها الرعد .

فى تلك اللحظات طلب منا الضابط المصرى أن نختبىء فى المواقع القريبة بسرعة .. هناك غارة جوية للعدو .. أسرعنا بالانبطاح فى تلال رملية قريبة من الشاطىء .. ووصلت ٤ طائرات اسرائيلية رأيتها تقترب من مياه القناة .. وفى نفس اللحظات التى كانت الطائرات تلقى بقنابلها .. كانت الصواريخ المصرية قد دمرت طائرة .. تمزقت الى قطع فى الجو وأصابت ثانية خرجت منها خيوط الدخان ، وما لبثت ان اشتعلت فيها النار وهى تسرع الى داخل سيناء بينما هربت باقى الطائرات وسمعنا صـــــوت ارتطام الطائرة المصابة بالأرض على مسافة ليست بعيدة من الشـــاطىء الشرقى للقناة .

عاد مرافقنا الضابط يقول باسما فى ثقة .. لا خطر الآن .. هيا نسرع بالعبور .. ورأيت المراسلين الأجانب الثلاثة فى حالة ذهول وهم ينظرون لنا والى مياه القناة .. بينما كان الضــــابط المصرى يستحثنا فى الاسراع .. وطلبت من الضــابط أن أعبر القناة فوق جسر المشاة .. وليس جسر السيارات فوافق ، لكنه طلب أن يتم ذلك بأقصى سرعة .. عبرت قناة السويس سائرا على الأقدام فوق الجسر بينما ركب المراسلون الأجانب السيارة وعبروا فوق الجسر الكبير .. نحن نعود الى سيناء بعد كل تلك

السنوات الصعبة التى عشناها نعانى من مرارة الهزيمة والاحباط والمعاناة النفسية والصمود والصبر الطويل .

انهار خط بارليف الحصين الذى جهزته اسـرائيل تجهيزا عسكريا لم يحدث من قبل فى تاريخ الحروب بكل مدافعه وصواريخه ودباباته وأجهزته الالكترونية الحديثة ، وشبكات الألغام التى تحيط به وخراطيم النابالم التى أعدت لاحراق القوات المصرية واشعال النيران فيها قبل أن تتم عبورها القناة الى الضفة الشرقية ومواقعه (٢٢) موقعا حصينا و (٣١) نقطة قوية وعشرات الدشم .. هذه القلاع الحصينة الاسرائيلية تعصرها المرارة والعدم ويحصدها الموت ..

تبادلنا التحية مع جنود جيش النيل على الضـفتين الغربية والشرقية .. استقبلتنا السيارة بسرعة .. لم يتوقف المراسلون الاجانب عن توجيه الأسئلة الى مرافقنا الضابط الشاب الذى كان يجيب على أسـئلتهم حول معركة العبور والاقتحام .. نزلنا من السيارة ٥ مرات للحماية والاختباء فالطيران الاسرائيلى يحاول فى إستماتة منع تقدم قواتنا والصواريخ المصرية تطارده .

وصلنا الى آخر نقطة على بعد ٨ كم الى داخل سيناء .. هنا قال مرافقنا الضابط ، يكفى ذلك الآن .. مكن ان تذهب الآن الى موقع على طول الخط .. أما التوغل فالخطر الشديد ينتظركم ، معارك الدبابات بدأت وعلى نطاق واسع .

التقيت مع اكبر عدد ممكن من المقاتلين الذين اشتركوا فى عملية العبور والاقتحام .. جنود من المشاة والمهندسين والصاعقة ورجال المدفعيـة ، عرفت أن هناك عددا كبيرا من الأسـرى الاسرائيليين من جنود مواقع بارليف والدبابات والمدفعية وأيضـا

عدداً من الطيارين .. غير أن أحدا لم يعطنا رقم هؤلاء الأسرى كما رفض طلبنا فى لقاء أحدهم .

شاهدت فى جولتى على طول القطاع الأوسط بين الفردان والدفرسوار مرورا بالمواقع الاسرائيلية المواجهة لمدينة الاسماعيلية التأثير الرهيب للقصف المدفعى المصرى العنيف على مواقع خط بارليف ، ورأيت المئات من جنودنا من رجال المدفعيـــة والدبابات والمشاة قد قاموا بحفر خنادق ومواقع لهم على طول المنطقة فى شرق القناة فى صورة خطوط متقاربة والى مسافة ٨ كم .

نجحت قوات جيش النيل فى تعميق رؤوس الكبارى حتى مسافة تصل الى ١٠ كم حتى ظهر اليوم تمكنت قوات الجيشين الثانى والثالث الميدانيين بمعاونة القوات الجوية من صـــد وتكسير كل الهجمات المضادة التى شاركت فيها احتياطيات العدو التى يطلق عليها العسكريون المحلية القريبة والتكتيكية والتعبوية التى قام بها العدو خلال الليل على طول الجبهة ومن عدة جهات وبقـــوات مختلفة .

لقد نجح رجال المشاة والمهندسين والصاعقة فى تنفيذ العبور واقتحام خط بارليف ، وقاتلوا قتالا مريرا خلال الـ ٦ ســاعات الأولى حتى عبرت الدبابات المصرية القناة .. لقد واجهوا هجمات القوات الاسرائيلية المضـــادة الأولى والمدعومة بالمدفعية المتحركة والدبابات على بعد ٣ كم ومدافع الخط الحصين .. ونجحوا تماما فى عدم تمكينه من انقاذ خطوط دفاعه المحاصرة بنيران المدفعية وهجوم قوات العبور الصاعق الناجحة ..

والساعات الـ ٢٤ الأولى من الحرب شهدت سيطرة قواتنا على امتداد الخط الاسرائيلى .. ٢٢ موقعا حصينا و ٣٠ نقطة قوية من عيون موسى حتى شرق بورفؤاد ، وفقدت مرابض الدبابات فاعليتها .. دمرت الدبابات .. أو فرت مذعورة .

وقوات مصر الشجاعة عبرت المانع المائى .. قهرت الســـاتر الترابى الرهيب و ٧٣ نطاقا من حقول الالغام والأسلاك الشائكة حول حصون الموت .. التى لم تكن تؤثر فيها قنابل الألف رطل .. واستطاعت أن تحقق المعجزة .. فتحت القنوات فى الساتر الترابى ودمرت خراطيم النابالم وسواتر الاسلاك المكهربة والملغومة .

ان معركة العبور الرهيبة .. لم تكن نزهة ولم تكن مجرد معركة عادية .. الشىء المؤكد الآن أن الخط الاسرائيلى الحصين ســـيضاف بالتأكيد الى قائمة الخطوط الدفاعية التى انهارت فى الحربين الأولى والثانية من هذا القرن .. سيجفريد وماجينو .. (حائط الاطلنطي) الذى انهار أمام جحافل الحلفاء .. فى الانزال الكبير على الشاطىء الفرنسى .. وكانت الضربة القاصمة وبداية النهاية للنازية ..

لقد سمعت المئات من قصص بطولات قواتنا المســلحة فى عمليتى العبور والاقتحام .. واذا كانت قواتنا قد حققت معجزة العبور ونفذت عملية اقتحام خط بارليف .. وسيطرت خلال تلك الساعات من الحرب على خطوط الدفاع الاسرائيلية .. فان رجال جيش النيل فيما بين الثامنة مساء السبت والسادسة من صباح اليوم الثانى الاحد ، خلال تلك الســاعات العشـــر كان الجنـــود المصريون يكافحون كفاحا أسطوريا ويقاتلون قتالا ضاريا مريرا ؛ كانوا يقاتلون داخل جبهتين .

يقاتلون داخل قلاع خط بارليف الاسرائيلى .. بينما كانت المدرعات والدبابات ومدفعية الميدان والصواريخ تقاتل قوات العدو التى كانت تندفع محمومة لتحقيق هدف العدو الذى وضعه أمامه فى تلك الليلة .. وهو محاولة الوصول للضفة الشرقية وانقاذ ما تبقى من خط بارليف أثناء الليل .. ودفع القوات المصرية لتقاتل على حافة القناة .. وتكون صيدا سهلا لقواته الجوية .

وتحمل المقاتلون المصريون فى تلك الليلة أشـــد المتاعب والأخطار .. وظلوا يعملون ويقاتلون ببسالة نادرة وبقوة فولاذية لا تلين طوال ساعات الليل ... وفى ظروف بالغة الصعوبة ولم تهدأ نيرانهم لحظة واحدة .. ونجحوا فى وقف قوات العدو بعيداً عن الضفة الشرقية للقناة .. بعد أن أوقعوا به خسائر يعرفها قادة العدو جيدا .. ووجهوا له أول هزيمة كاملة فى أول معركة تتم فيها مواجهة حقيقية بين قوات مصرية مستعدة لمواجهته .

وعند ظهور قرص الشمس .. شمس السابع من أكتوبر .. من ناحية الشرق .. كانت قواتنا موجودة بقوة على أرض سيناء . بينما كان خط الدفاع الاسرائيلى الرهيب قد تخلخل .. وكانت الصورة الحقيقية كما رأيتها صــباح اليوم داخل خط بارليف .. مواقع استسلمت مذعورة لقوات العبور المصرية بعد أن أصيبت بالشلل الكامل والرعب الجنـــــون ، مواقع قتل بعض جنودها واستسلم الباقى .. مواقع نسفت بمن فيها .. ومواقع أخرى تحت حصار قوات العبور المصرية .. وكان جنود العدو والذين مازالوا احياء داخل المواقع الحصينة فى حالة ذهول .. وهربوا الى الادوار الأرضية داخل المواقع يتحصنون داخلها خوفا من مواجهة الجيش المصرى ..

وهكذا .. تخلخل خط بارليف .. خط الموت الاسرائيلى .. ووقع فى قبضة جيش النيل واصبحت كتل الفولاذ الخرســــانية الرهيبة قلاعا خرافية يعصرها الخوف .. وتنتظر الموت .. انتهت أسطورة خط بارليف .. وولدت مصر من جديد .. تحطم ستار الخوف .. وولدت ارادة من حديد وتغيرت خريطة جبهة القتال .. وهكذا .. بدأت حرب الصحراء على أرض سيناء ..

الفصـــل الخـــامس

أذرع العمـلاق فوق القنـاة

فى الأيام السـوداء قبل اكتوبر كنت أضيق أحيانا بقناة السويس .. المجرى الملاحى للقناة كان هو المانع الوحيد والمؤثر فى تأخير معركة تحرير أرضنا من غاصبيها .. فأنا احب سيناء الأرض والتاريخ والبشر ، ولا أتصور أن تترك أرضنا المقدسة منذ البدايات الأولى للانسانية يدنسها هؤلاء الحاقدون على كل مقدس ، على الأرض ، ان أعماقهم وقلوبهم السوداء منذ القدم تكره كل مقدسات مصر وأولها سيناء .

غير أن حبى العميق لقناة السويس التى حفرها اجدادى بالأظافر والدم والدموع ، ومات منهم ١٢٠ ألف شاب ورجل وشيخ وهم يحفرونها بطول ١٦٠ كم بين بورسعيد والسويس .. كان يتغلب بسرعة على مشاعر الضيق والغضب كلما مرت الأيام دون أن تبدأ المعركة .. خاصة فى سنوات الصمت المروع اللعين فيما بين نهاية صيف عام ١٩٧٠ وبداية الحرب يوم السبت الخالد ٦ أكتوبر ، واكتشفت اننى أحب قناة السويس الأرض والمجرى الملاحى والبشر ، فأنا واحد من أبناء الاسماعيلية .. المدينة الوسطى والأكبر بين بورسعيد والسويس ، وأن مدينتى نفسها مثل غيرها منمدن القناة ولدت مع قناة السويس ، ولولا القناة لما كانت هذه المدن والقرى ، ولما كانت مدينتى ، وربما ولدت أنا فى أى مدينة أخرى من مدن الدلتا ولتغيرت أشياء كثيرة فى حياتى ، اكتشفت

أننى أحب القناة كما احب سيناء .. وأن علينا أن نضع جسوراً للعبور الى الشرق لتحرير الأرض .. كبارى ومعابر وأنفاق لكى نلغى المسافة بين الغرب والشرق ، لأن القناة لابد أن تبقى ولابد من تحرير سيناء مع وجود هذا المانع المائى الرهيب الذى يفصل بين قواتنا والعدو المتربص على الضفة الأخرى ..

وكنت أحلم مرة ومرات فى اليوم الواحد باقامة جسر واحد فوق قناة السويس اعبر عليه الى ارضنا الأسيرة فى سيناء .. وظل هذا الحلم يعيش معى فى الليل والنهار سنين طويلة ، كلما ذهبت الى خط المياه الغربى الامامى قبل الحرب كنت أنظر بكل الألم والعذاب الى الشرق .. الى سيناء .. وكان السؤال الأول لكل من أقابلهم من رجال قواتنا المســــــلحة .. متى نعبر القناة يا رجال .. ؟

ومنذ بداية الحرب وكلما عبرت القناة فوق الجسور الضخمة وكبارى ومعابر المشاة وتذكرت ايام المعاناة الطويلة ، أن أحداً لا يستطيع أن يقدر ما قام به رجال سلاح المهندسين المصرى من الدقيقة الأولى للحرب وحتى الآن .. الا اذا عاش كما عشت تلك السنوات كلها فى جبهة القتال .. ولن يقدر ما حدث الا اذا عرف حجم العمل الشاق المرير الذى نفذوه قبل واثناء وبعد توقف المعارك الكبرى .. لقد كانت الجسور تقام فى سرعة مذهلة ، كانت تكبر وكأنها أذرع عملاق ضخم يتمدد بين الضفة الغربية للقناة وشاطئها الآخر على أرض سيناء .

لقد عاش سلاح المهندسين تجربة رائعة فى الاعداد والتدريب والتنفيذ ، وأخذ المكانة التى يستحقها بين أسلحة القوات المسلحة المصرية قبل واثناء وبعد حرب أكتوبر .. لقد اتضح لأول وهلة بعد عمليات ٦٧ أن مهام المعاونة الهندسية فى اى عمليات مقبلة

فى مسرح عمليات السويس وسيناء ستكون عاملا حاسما حيث يجب أن تنهيأ الظروف المناسبة لاخفاء ووقاية القوات ضد وسائل العدو التدميرية .

ولقد بدأ التحضير لتجهيز مسرح العمليات فعلا من العاشر من يونيو ٦٧ ومنذ هذا التاريخ نفذت وحدات المهندسين أحجاما هائلة من المهام الهندسية لتحقيق معاونة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة ولتحقيق الوقاية للأهداف الحيوية للدولة .

وخلال مراحل الصمود والدفاع الوقائى والردع وحرب الاستنزاف وسنوات الصمت التى أعقبتها كان رجال سلاح المهندسين قد نفذوا خطة التأمين الهندسى للقوات البرية الى جانب انشاء شبكات الطرق البرية فى مساحات تبلغ ١٨٠٠ كم ، وتنفيذ خطة التأمين الهندسى للقوات الجوية التى تشمل بناء دشم حماية الطائرات وزيادة الممرات والقواعد الجوية الى جانب تطوير المطارات وانشاء ملاجىء الطائرات التى تعتبر الآن نموذجا أمام دول العالم بعد أن ثبت صلاحيتها الكاملة لوقاية الطائرات من الضربات الجوية المفاجئة ..

وفى ذات الوقت تنفيذ الخطة الأخرى شديدة الاهمية التى يطلق عليها التأمين الهندسى لقوات الدفاع الجوى ، ونجح سلاح المهندسين خلال حرب الاستنزاف من بناء قواعد حائط الصواريخ المصرية مع نهاية عام ١٩٧٠ الى جانب أعداد ٨٠٠ كم من الطرق المرصوفة و ٣ آلاف كم من الطرق المثبتة بمواد تثبيت .

كما تم حل المشاكل المعقدة الخاصة بالتغلب على الساتر الترابى وكل عقبات العبور والاقتحام وأجريت مئات التجارب وتوصل رجال المهندسين الى وسيلة استخدام مدافع المياه لفتح الثغرات

فى الساتر الذى يبلغ ارتفاعه من ١٢ الى ٢٢ مترا الى جانب اعداد وتطوير وسائل العبور والكبارى والجسور ومعابر المشاة وحفر ملايين الأمتار من الرمال سواء في قواعد القوات البرية أو الجوية أو الدفاع الجوى خلال سنوات عمل شاق دؤوب ، كلف مصر الى جانب جهد الرجال ما يقرب من ٢٥٠ مليون جنيه .

وبعد ذلك كله اعداد وتنفيذ الخطط الخاصة بتدمير خط بارليف الحصين (٣٠ موقع حصين و ٣١ نقطة قوية ..) وكانت عملية اعادة تجميع وحدات العبور والكبارى من أهم الانجازات فى جو من السرية التامة حيث لم تكتشف الا لحظة اسقاط هذه المعدات فى قناة السويس علما بأن اطوال طوابير هذه الوحدات يبلغ نحو ٣٠٠ كم ..

وتبدأ ملحمة الرجال والجسور والعبور .. نجحت وحدات المهندسين العسكريين فى فتح ممرات الساتر الترابى وكانت هذه العملية تعتبر من أعقد المهام ، استخدمت فيها مدافع المياه لأول مرة فى التاريخ العسكرى ، وفتحت الممرات فى وقت قصير حيث استغرق ذلك نحو ٤ ساعات فقط مما أذهل العدو الذى كان يقدر لفتحها مالا يقل عن ١٢ ساعة ، وبلغ عدد الممرات التى فتحت ٧٦ ممرا بازاحة ١٥٠ الف متر من الرمال .

وتمكنت وحدات العبور والكبارى من انشاء الكبارى والمعدات على الرغم من التدخل الكثيف لطيران العدو ومدفعيته بعيدة المدى ووسائله الأخرى ، وكان التوقيت المخطط لانشاء هذه الكبارى يتراوح ما بين ٧ — ٩ ساعات ، وقد تحققت أرقام قياسية فى سرعة انشاء بعض الكبارى بلغ نحو ٦ ساعات فقط أصبحت بعدها جاهزة لعبور القوات ، وخلال الليلة الأولى للعمليات كان قد تم انشاء ١٠ كبارى وعشرات من المعديات مما سمح بعبور الدبابات

وغيرها من المعدات لتشترك فى احباط هجمات العدو المضـــادة ولتساند القوات اثناء تقدمها شرقا .

منذ الدقيقة الأولى لبداية الحرب كان لرجال سلاح المهندسين دورهم العظيم .. عبروا مع موجات العبـــور الأولى حيث قاموا بتأمين مرور رجال الموجة الأولى من حقول الالغام كما قاموا بفتح الثغرات فى الساتر الترابى وتجهيز الأرصفة للمعديات الكبارى فى الساعة الأولى كان هناك نحو ٨ آلاف رجل من رجال ســـــلاح المهندسين .

وخلال ســــــاعتين من انطلاقة الشـــرارة كان حجم قوات المهندسين العسكريين التى عبرت القناة والتى اندفعت فوق سطح الساتر الترابى وفوق صفحة مياه القناة كان قد تجاوز خمسة عشر ألف مقاتل وباستخدام طلمبات المياه المصـــــرية الصنع ــ مدافع المياه ــ قام الرجال بفتح الثغرات فى الساتر الترابى على طول المواجهة بينما اندفعت مئات العربات المحملة بمعدات الـــــكبارى واللنشات الى سطح القناة لاقامة جسور العبور .

وبدأت الكبارى تقام أمام الثغرات التى فتحت فى الســـاتر الترابى ، وخلال ساعات كان قد أقيم عشرة كبارى ثقيلة وعشرة أخرى خفيفة للمشــــاة وعدد كبير من المعديات مما أتاح لدباباتنا ومعداتنا وأسلحتنا الثقيلة أن تعبر القناة وتصل رؤوس الكبارى فى وقت مناسب بعد ٦ ساعات فقط من بداية العبور .

وركز العدو نيرانه على الكبارى فى محاولة مستميتة لمنع تدفق قواتنا الرئيسية واصيبت معظم الكبارى اكثر من خمس مرات وكانت ارادة الرجال أكبر من أى تحد ، كان يتم اصـــلاح الكبارى أثناء القصـــــف المعادي عليها ولم يتعطل كوبرى واحد طوال فترة العبور .

ولم يقتصر دور المهندسين العسكريين على انشاء المعديات والكبارى .. بل قاموا ببذل مجهود ضخم فى الاستيلاء على رؤوس الكبارى وتعزيزها وذلك بالتعاون مع باقى الاسلحة المشتركة فى صد هجمات العدو المدرعة برص الألغام فى مواجهة العدو ولحصر مناوراته وايقاف تحركاته ، كما عبرت الى رؤوس الكبارى مئات القطع من المعدات الهندسية المتنوعة لتعاون القوات الرئيسية فى تجهيز مواقعها بحفر خنادق ومواقع الدبابات والمدفعية ويكفى قوات المهندسين فخرا أنها استطاعت أن تقوم بزرع مليون لغم مضـــــاد للدبابات خلال أيام الحرب .

وخلال أيام الحرب الضارية كان رجال سلاح المهندسين هم فرسان مصر فى حماية الجسور وسرعة اقامتها كلما تمكن العدو من اصابتها ، لكى تظل ثابتة خلف قواتنا المسلحة الباسلة وهى تتقدم وتقاتل لتحرير أرضنا المقدسة .

الفصل السادس

الذئاب المسعورة

عندما رأيت طيور الموت الحديدية المصرية وهى تبدأ مهرجان الحرب فى دقائقه الأولى .. تنطلق وتندفع فى سرعة وقوة لتبدأ افتتاحية سميفونية التحرير على أرض سيناء الأسيرة .. تذكرت فى تلك اللحظات مشاهد البداية فى حرب يونيه السوداء .. وما جرى فى ذلك الصباح المشئوم عندما هاجم نفس العدو مطاراتنا وطائراتنا ودمرها وهى ساكنة على الأرض .. مشاهد الموت انتحارا بين طائراتنا القليلة التى ارتفعت فجأة من بين الحطام لتواجه المئات من طائرات العدو فى الجو ..

هذه المرة نحن الذين بدأنا .. العملاق تيقظ .. المبادرة فى أيدينا.. طائراتنا تضرب خطوط العدو الخلفية ومواقع القيــادة والشئون الادارية والمطارات وتجمعات الفرق المدرعة وحصون خط بارليف كلها فى وقت واحد .. وتصنع غطاء جويا لقواتنا وهى تعبر القناة .. لقد أنتظرت هذه اللحظات سنوات طويلة .. والأيام الصعبة والآلام والأحزان لم تضع هباء ..

سيف مصر ودرعها ينطلق لكى يحرر الأرض السليبة .. يقول للعدو .. مصر وان خسرت معركة فانها لا تركع .. صمدت وبذلت كثيرا من الدماء والعرق .. استعدت ليوم التحدى الكبير .. أبناء مصر طال الزمن أو قصر لابد وأن يأخذوا بالثأر للشــــهداء ويستردوا الأرض المغتصبة .

حرب اكتوبر تمثل فى واقع الأمر .. المجابهـــة الأولى أو الاختبار الحقيقى بين قواتنا الجوية وسلاح الجو الاسرائيلى .. بين الطيار الصهيونى الغاصب والطيار المصرى الذى يقاتل لتحرير أرضه .. فى الحروب السابقة وخاصة الجولتين السابقتين (عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) دخلت قواتنا المسلحة القتال دون غطاء جوى بعد أن تم تدمير الطيران المصرى على الأرض قبل بدء الحرب .. الأمر الذى كان يجعل قواتنا البرية والبحرية عقب كل ضربة مفاجئة للعدو عارية من غطائها الجوى فى مسرح الحرب المكشـــــوف وفى بالغ الشدة والحرج .

غير أن فى هذه الحرب اختلفت الصورة تماما .. كانت البداية الضربة الجوية .. طائراتنا ترتفع الى السماء وتأخذ طريقها الى مواقع العدو فتدمرها وتحولها الى كتل من الحديد المشتعل .. نشط القتال الجوى منذ البداية واستمر حتى اللحظة الأخيرة من الحرب .. فقد بدأت القوات الجوية المصـــــرية الحرب بتوجيه الضربة الجوية المركزة المفاجئة للعدو .. وتركت بعد دقائق مراكز قيادته ونقط انذاره عمياء خرساء ..

يوميات وسجلات الحرب وتقارير العمليات العسكرية تقول ان عدد المعارك الجوية عند وقوع القتال مساء أمس بلغت ٥٠ معركة شرسة منها ٨ معارك كبيرة أسقط فيها للعدو ٩٠ طائرة فوق شمال الدلتا وبورسعيد والسويس وفايد الى جانب الغارات الأخرى التى شنتها طائراتنا طوال أيام الحرب .

ومنذ صباح السابع من أكتوبر ظلت قواتنا الجوية تقصف احتياطات العدو بلا هوادة .. وتلحق به طوال أيام القتال التالية أفدح الخسائر فى الدبابات والمعدات والأسلحة والأفراد .. كانت أسراب المقاتلات القاذفة من طراز سوخوى وميج ١٧ ، ٢١ تحقق

أرقاماً قياسية فى معدلات الاصابة وتدمير الأهداف المعادية فى نحو الف طلعة جوية وتمت المعاونة الجوية المباشرة للجيشين الثانى والثالث بكفاءة وتنسيق نادرين منذ أن بدأ القتال ظهيرة اليوم الأول للحرب .

وفى ذات الوقت الذى ارتفع فيه أزيز الطائرات المصرية المهاجمة لتحرير الأرض السليبة .. كان هناك صياح يصم الآذان ويمس القلوب والوجدان .. الله اكبر .. يطلقها الجنود والضباط وهم يقتحمون مياه القناة للانقضاض على حصون خط بارليف .. لقد حانت اللحظة الحاسمة التى ظلوا ينتظرونها طوال ٦ سنوات .. نموت وتحيا مصر ..

وبينما كان جنود مصر ينقضون على حصون العدو المنيعة .. ويرفعون علمها خفاقا فوق نقطها المتهاوية .. يقتحمون الدشم الحصينة بأسلحتهم ويلتحمون مع جنود جيش اسرائيل المذعورين . كان زملاء لهم يقتحمون ويتقدمون للأمام ليواجهوا دبابات العدو ليدمروها .. قبل أن تتمكن من نجدة الحصون المتداعية .. وقبلهم كان هناك رجال الصاعقة والمظلات الذين نزلوا بعمليات الابرار من طائرات الهليوكوبتر ليمنعوا تقدم احتياطات العدو المدرعة التى هرعت الى خط المياه فى محاولات مستميتة لصد الهجوم المصرى الكاسح ..

ان أحدا لا يستطيع أن يدرك مغزى أهمية الطيران فى معارك صحراء سيناء أو اى صحراء أخرى الا الذين حاربوا معركتى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ عندما أجبرت قواتنا على القتال عارية من غطائها الجوى وعلى الانسحاب أيضا عارية من نفس الغطاء ، وبذلك وقعت فريسة للطيران الاسرائيلى .

من هنا فأنني أعتقد أن التأثير النفسي الشديد على قواتنا البرية وهي تعبر القناة .. وهي ترى طائراتنا تبدأ الحرب وتوجه تلك الضربة الموجعة القوية .. كانت له آثار ايجابية رائعة على قوات العبور وعلى معدلات الأداء البطولي والفدائي لكل فرد منهم .. وبنفس معدلات التأثير كان للضربة الجوية المصرية تأثيرها الخطير في خنق الروح المعنوية لجيش العدو وهو يرى الطائرات المصرية تدمر أهم مراكزه وحشوده وتدمر حصـــــونه في افتتاحية الحرب .

ان القاذفات المصرية نفذت معارك القصف الجوى بصورة رائعة عندما انطلقت من قواعدها تصب الدمار على أهدافها المحددة وتلقى مئات الأطنان من القنابل على مطارات (سدر والطور والمليز والعريش) وتقصف تجمعات العدو المدرعة وقواته الميكانيكية داخل سيناء طوال الحرب والحقت بالعدو خسائر مادية في قواته التى تسللت نحو الدفرسوار محطمة معابره ومراكز قيادته .

أما طائرات الهليوكوبتر المصرية فقد أدت مهمة انزال وحدات الصاعقة في عمق سيناء جنوبا وشمالا .. الأمر الذى أذهل العدو وأربكه وشل حركته وعرقل مناوراته وامداداته وبذلك اســـتمرت أسراب الهليوكوبتر طيلة أيام القتال تمد وحدات الصاعقة بلوازمها وذخائرها حتى تواصل القتال ليلا ونهارا في أشق الظروف وأعظمها خطـــرا ..

ان العدو يحاول أن يستعيد المبادرة حتى أثناء قيام سلاح الطيران المصرى بتوجيه ضربته الأولى وتمكن في بعض القطاعات المحدودة من اعتراض طائراتنا التى لم تكن قد وصلت الى أهدافها . غير أن طيارينا البواسل صمموا على انجاز المهمة مهما كان الثمن ،

واشتبك عدد منهم بينما كانت طائراتهم محملة بالقنابل والصواريخ مع طائرات العدو الاعتراضية حتى وصلت طائرات الحماية المصرية لتتولى هى مهمة الاشتباك الفورى والســـــريع مع طائرات العدو الاعتراضية وينطلقون هم وبنفس السرعة لاستكمال مهامهم المحددة وهى تدمير مواقع وحشود واحتياطات العدو داخل عمق سيناء .

وفيما بين صباح اليوم الثانى للقتال (٧ أكتوبر) واليوم الخامس عشر للحرب (٢٠ أكتوبر) شنت طائرات العدو سلسلة متصلة من الغارات لضرب مطاراتنا فى القطامية والمنصورة والصالحية وطنطا وشبراخيت وجناكليس وقويســـــنا وأبو حماد وبنى سويف وبير عويضة .. كان هدف العدو الرئيسى ضرب مطاراتنا واحداث اكبر قدر من الخسـائر فى طائراتنا بقصد اخراج سلاح الطيران المصرى من المعركة .

كانت أخطر واقوى محاولات العدو هى سلسلة غاراته صباح وطوال يوم السابع من اكتوبر وفشلت المحاولة تماما .. كنا مستعدين له بالدفاعات الجوية وبصعود طائراتنا فى الجو لاستقبال طائراته فى اللحظات المناسبة ، وكنا نستعد أيضا لاصلاح أى تدمير تحدثه غارات العدو داخل مطارتنا بفرق كاملة من الفنيين المدربين تدريبا عاليا جدا .

وعندما احس العدو بفشل محاولات يوم٧ أكتوبر .. قلل من غاراته فوق مطاراتنا وانخفضت الغارات لتصل ما بين غارة الى ٤ غارات يوميا حتى اليوم الخامس عشر للقتال (٢١ أكتوبر) بل انه توقف نهائيا عن الاغارة على مطاراتنا قبل نهاية الحرب بنحو ٣٠ ساعة .. ولأول مرة فى تاريخ الحرب الحديثة سجل الطيار المصرى حدثا فريدا عندما استطاع طيار مصرى بطائرته الهليوكوبتر وكان يحمل عددا من رجال الصاعقة الى عمق دفاعات العدو وعلى

بعد ٧٠ كيلومترا من خط المياه عند قناة السويس واستطاع أن يتفادى كل نيران دفاعات العدو التى حاولت ضـــــربه ومنعه من الوصول الى هدفه ونجح الطيار فى انزال رجال الصاعقة الى مواقعهم فى قلب سيناء .

وفى طريق العودة قام مرة أخرى بتفادى نيران العدو التى تلاحقه فى كل مكان .. واســــرعت احدى طائرات الفــــانتوم الاسرائيلية وهى أقوى الطائرات التى أنتجتها ترسانة الســـلاح الأمريكى لكى تدمر الهليوكوبتر المصرية .. غير ان الطيار المصرى تمكن من تدمير الفانتوم بواسطة صـــــواريخ الهليوكوبتر وهى مخصـــــصة لضرب الدبابات وليس تدمير أى طائرة .. فما بالنا بالفانتوم الرهيبة .

وطار صواب القيادة الاسرائيلية لما حدث .. فقد نجح الطيار المصرى فى العودة الى قواعده وبعد ان تمكن من توصيل رجال الصاعقة وتفادى كل مصائد الموت دمر الفانتوم بسلاح مخصص للدبابات .

وسجلت الكثير من المعارك الجوية خوف الكثير من الطيارين الاسرائيليين من الاشتباك مع الطيار المصرى . وقبل وصول سلاح الطيران الاســـرائيلى من الدعم الامريكى من الطائرات والطيارين (مزدوجى الجنسية) كان التفوق والغلبة للطيار المصرى فى كل الاشتباكات الجوية .. ووصل الحال فى بعض المعارك ان طيارى العدو اشتبكوا بطائراتهم معا بسبب الارتباك الشديد الذى اصيبوا به .

سلاح الطيران المصري الحق أفدح الخسائر بقوات العدو التى اخترقت قواتنا فى منطقة المفاصل بين الجيشين الثانى والثالث وعبرت قناة السويس الى الضفة الغربية من نقطة الدفرســـوار

ووصـــل قصف هذه القوات حتى اللحظات الأخيرة من الحرب ، والارقام تؤكد ان ٢٥٠٠ طلعة جوية قامت بها الطائرات المصرية فوق القوات الاسرائيلية المحاصرة فى جنوب غرب قناة السويس . منها ١٨٠٠ طلعة مقاتلات و ٣٠٠ طلعة مقاتلات قاذفة و ٢٠ طلعة هلبوكوبتر و ١٠ طلعات استطلاع جوى فيما بين يوم ٦ اكتوبر ومساء ١٢ أكتوبر وفى تلك الفترة نفسها أسقطت للعدو ٣٢ طائرة اسرائيلية فوق الثغرة .

لا يمكن ان تمر هذه السطور دون الحديث عن رجال القوات الجوية من المهندسين والفنيين الذين حققوا أعلى درجات الكفاءة والمهارة فى اداء الواجب ، فاحتفظوا بنسبة صلاحية الطائرات فى أعلى درجاتها .. ونجحوا فى اتمام اعادة ملء الطائرات بالوقود والذخيرة والقنابل فيما لا يزيد عن ٦ دقائق ولكنهم لم يملأوا الدنيا ضجيجا لتلك الارقام المذهلة كما فعلت اسرائيل فى عام ١٩٦٧ عندما حققت رقما أعلنت أنه قياسى لا يمكن التفوق عليه وكان مجرد ٧٫٥ دقيقة .. لقد كسر سلاحنا الجوى هذا الرقم القياسى فى صمت متواضع خلال ١٧ يوما لم تهدأ فيها الطائرات دقيقة واحدة .

لقد استبسل الجميع بكل التفانى والفداء فى اصلاح وصيانة طائراتنا خلال المعارك وقاموا بأعمال مجيدة وقاموا بسد الثغرات على الممرات التى أحدثتها طائرات العدو فى المرات القليلة التى تمكنت فيها من ضرب بعض مطاراتنا .

وهم يحكون عن الميكانيكى المصرى الذى سقطت قبلة زمنية امامه مجموعة من الفنيين فأسرع الميكانيكى بالامساك بالقنبلة وجرى بها سريعا بعيدا عن دشمة الطائرة والقاها فى منطقة فضـــــاء فانفجرت بعد ثوان وتمكن من انقاذ زملائه وأيضا الطائرة .

ان قواتنا الجوية شاركت فى ١٨ معركة جوية غرب القناة

بعد الثغرة وقد خسرنا العديد من الطائرات واستشهد لنا أبطال من سلاحنا الجوى لكن خسائرنا لا تقارن بخسائر العدو .. لقد ضحى طيارو المقاتلات القاذفة كثيرا وهم يصرون على تنفيذ مهامهم بمنتهى الدقة وسقط العديد فى ساحة الشـــرف .

بعض الطبارين المصريين خلال الضربة القوية المركزة (أم خشيب) أهم مراكز الشوشرة التى اقامها العدو فى سيناء قام بـــ ٣ و ٤ هجمات لكى يتأكد من تدمير الهدف .

وهناك بطولات لا تحصى لنسور مصر فى سلاح الطيران .. لقد سمعت قصة الطيار المصـــــرى الذى هجم على طائرة فانتوم اسرائيلية وهى على الأرض وفى الهجمة الثانية أبلغ مركز القيادة ان طائرته أصيبت وسجل صوته اللاسلكى وهو ينطق الشهادة ويندفع بطائرته فى وسط ٦ طائرات فانتوم واستشهد وسطها لكى لا يموت بغير تدمير عدد من طائرات العدو .

وخلال أيام الحرب الساخنة كانوا يتسابقون للمشاركة فى المعارك وخاصة فى المعارك الجوية فوق القنطرة رغم كل التعزيزات الأمريكية الجوية لاسرائيل وقد استمر معدل المعارك الجوية فى تزايد وكان قائد السلاح الجوى على اتصال دائم بالقيادة العامة يعرض استعداد القوات الجوية للمشاركة فى أى عمليات لأن لديه فائض من الطائرات والطيارين المستعدين ٢٤ ساعة فى اليوم لقتال العدو .

أحد القادة الاسرائيليين داخل حصون خط بارليف سجلت له قواتنا فى بداية الهجوم اشارات طلب تدخل الطيران الاسرائيلى عندما صاح فى أجهزة الاتصـــــالات الالكترونية .. ان الطائرات المصرية تهاجمنا كالذئاب المسعورة .. واليوم وبعد توقف الحرب رسميا بنحو ٣٠ ساعة اقول أن الذئاب لاتزال مسعورة .. وسوف تظل مسعورة مادام هناك جندى صهيونى واحد على أرض مصر .

الفصـــــل الســـــابع

حرب الدهـــاء وحوار الصـــواريخ

لا أتصور حرب اكتوبر بدون سلاح الصـــــواريخ أرض جو (فصيلة أولاد سام) .. غابة الصواريخ المصرية وحائط الصلب فى مواجهة سلاح الجو الاسرائيلى المتقدم والمتفوق .. خســـائر اسرائيل فى قواتها الجوية وصلت الى ٢٨٠ طائرة على الجبهة المصرية .. تولت صواريخ سام تدمير ٦٠٪ من هذه الطائرات ١٦٨ طائرة من جملة الخسائر التى اسقطت بكافة الأسلحة المضادة للطائرات والقتال الجوى .

أهمية الارقام هنا انها تحدد وتكشف ما أصاب اسرائيل من خسائر فى صفوف الطيارين الذين عاشت طويلا تعدهم وتدربهم .. هناك الصدمة النفسية الاليمة والقوية ذات التأثير المباشر على قيادة سلاح الجو الاسرائيلى وطياريه .. مما أحدث اهتزاز الثقة فى النفس وفى القيادة ..

وبعد سحب عناصـــر الدفاع الجوى المصـــرية من منطقة الدفرســـوار فى أعقاب اختراق العدو للمنطقة والدعم الامريكى الهائل لسلاح الجو الاسرائيلى فى الأيام الأخيرة .. الـ ٦ الأخيرة للقتال بأحدث الطائرات والقنابل والصواريخ التليفزيونية .. على الرغم من ذلك كله .. فان قوات الدفاع الجوى المصـــرى قامت بدورها الرائع والبارز فى توفير الحماية اللازمة لكل الأهـــداف الحيوية على امتداد الدولة والقوات البرية والمطــارات والقواعد

اضافة الى صد هجمات العدو الجوية بالاشتراك مع سلاحنا الجوى الذى قام بأكثر من ٢٤٠٠ طلعة خلال الفترة الأخيرة من المعارك فوق منطقة الثغرة وكانت خسائر العدو فيها تصل الى ٧٠ طائرة .

سلاح الدفاع الجوى المصرى كان أحد الظواهر الرائعة فى الحرب .. كان دوره مؤثرا وفعالا الى درجة غيرت الكثير من موازين القوى خلال أيام الحرب الساخنة .. بعد ان أصبح هذا السلاح يمثل دور الشبح صائد الطائرات الاسرائيلية ومدمرها .. يعمل له سلاح الجو الاسرائيلى الف حساب .

قامت قوات الدفاع الجوى المصـــرية خلال الحرب بتوفير الحماية المستمرة لقواتنا البرية شـــرق وغرب القناة طوال فترة القتال .. كما قامت بتوفير الحماية والوقاية لقواعدنا الجوية .. الأمر الذى أدى الى فشل العدو فى تحقيق أهدافه .. ســواء بتدمير طائراتنا على الأرض .. أو تعطيل مطاراتنا وقواعدنا الجوية .. وهو الأسلوب الذى نفذه العدو فى حرب ١٩٦٧ .

لقد شــكلت قوات الدفاع الجوى المظلة النيرانية والدرع الواقى من هجمات العدو الجوية ضــد قواتنا وأهدافنا .. تلك الهجمات التى بلغ اجمالها خلال هذه المرحلة ١٥٠٠ طلعة طائرة ضد الجبهة المصرية وحدها .. ركز ٧٠٪ منها ضد القوات البرية و١٥٪ ضد المطارات والقواعد الجوية و ١٥٪ ضــد تجميع الصواريخ فى قطاع بورسعيد الدفاعى .

لقد رأيت بنفسى الكثير جدا من المعارك الجوية التى دارت فى سماء منطقة القناة خلال حرب الاستنزاف .. وشاهدت هذا السلاح الحاسم والمؤكد عند استخدامه .. حيث اســتطاع هذا السلاح أن (يحجم) الغارات الاسرائيلية المكثفة ويضع حدا لعربدة

الفانتوم فى سماء منطقة القناة وشرق الدلتا .. وذلك الشـــريط الطويل المحازى للضفة الغربية لقناة السويس من بورسعيد الى بورتوفيق .. والى عمق ٣٠ كم تقريبا .. وفى ذلك اليوم توصلت الى مرحلة اليقين ان هذا السلاح سيكون له دور حاسم فى معركة قادمة مع العدو .

واذا كان هذا السلاح قد انهى أسطورة الفانتوم قبيل وقف الحرب بأسابيع فى جبهة قناة السويس فانه استطاع ان (يشل) وبصورة حاسمة وواضحة سلاح الجو الاسرائيلى فى حرب أكتوبر .. وأن يوجه له ضربات قاتلة .. وان يشكل مع الطيران المصرى المظلة الواقية للقوات المصرية خلال عملية العبور وبعدها وطوال أيام الحرب ..

غير أن المسألة كلها لم تكن بهذه البساطة .. فان أسرار قصة غابة الصواريخ المصرية تعتبر واحدة من أروع صـــــفحات الاعداد المصرى البارع والذكى فى واحدة من أخطر معارك الدهاء فى تاريخ المواجهة العسكرية بين مصر واسرائيل .

واذا كان قادة اسرائيل قد اعترفوا بعد اندلاع الحرب أنهم خدعوا بمهارة وان المصريين قاموا بوضع (الطعم) لهم ليس قبل الأيام السابقة على الحرب مباشرة .. بل قبل ذلك بفترة طويلة .. وأن مصر قامت بحملة من التضليل الهدف منها تخدير هيئة الأركان الاسرائيلية وحكومة اسرائيل .. فان خطة التضليل المصرية بدأت عام ١٩٧٢ وفى آخر ذلك العام كانت الخطة قد بلغت مرحلة متقدمة .. وكان حجمها ودهاؤها على مستوى تخطيط وتنفيذ عال جدا ويواكب التقدم الذى برهن عليه المصريون فى المستوى القتالى بعد ذلك من اللحظة الأولى لاندلاع الحرب ..

وكانت البداية خطة خداع ذكية هائلة ومستمرة .. منذ اغسطس ١٩٧٢ ، ورحيل الخبراء السوفييت من مصر .. انطلقت وعلى الفور أجهزة الاعلام الصهيونية والعالمية لتؤكد أن مصر قد فقدت القدرة القتالية لمجابهة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي وبخاصة في مجال الدفاع الجوى .. لما يتطلبه تشغيل مثل هذه الشبكة الهائلة والتي اعتبرت اكثف غابة من الصواريخ المضادة للطائرات في العالم بالنسبة لحجم المنطقة المقامة عليها .. من الاعتماد على تكنولوجيا عصرية متقدمة للغاية ، وأعتقدت القيادة الاسرائيلية أنه لا قبل لمصر بالاضطلاع بها . استنادا الى ما روجته وسائل الاعلام الاسرائيلية وصدقه العالم .. بل وصدقه بعض العرب كذلك .. مما أسمته بالفجوة التكنولوجية الهائلة التي تفصل بين التقدم الاسرائيلي والتخلف العربي ، فقد كان تقديرهم أن الأمر يحتاج الى جيل أو جيلين كي تتمكن مصر من اللحاق بسباق العلم الحديث وعلى وجه الخصوص في أعقاب رحيل الخبراء السوفييت .

واستغلت القيادة المصرية هذه الفرصة النادرة لاستدراج الاسرائيليين في اتجاه ما أطلق عليه (مصيدة الحمقى) وذلك بالعمل على جعلهم يصدقون ما أشاعوه حتى يصبح لديهم في حكم الحقيقة الواقعة .. وجاءت النتائج طيبة للغاية .. في صالح مصر قبيل حرب اكتوبر ..

وبدأت وسائل الاعلام العالمية والصهيونية بزفاف البشرى عن انهيار القدرة القتالية المصرية والشلل الذى أصاب وسائل دفاعها الجوى ازاء « ذراع اسرائيل الطويلة » .. ففى ٨ نوفمبر ١٩٧٢ كتبت مجلة الطيران الأمريكية تقول .. لقد أغلقت مصر جميع قواعد الصواريخ الموجودة بها .. وذلك كنتيجة مباشرة لرحيل المستشارين السوفييت منها .. كذلك بسبب نقص الخبرة الفنية المصرية اللازمة لتشغيلها .

وفى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ يكتب مراسل الواشنطن بوســت فى القاهرة .. علم فى القاهرة انه فى نوفمبر الماضى اقتربت طائرتان اسرائيليتان الى مسافة ٥٠ كم من القاهره دون ان ينجح المصريون فى اطلاق الصواريخ علىها ، وقد تم اطلاق صاروخ واحد ولكن بعد أن استدارت الطائرتان الاسرائيليتان فى اتجاه سيناء .. !قد أصبحت الكفاءة القتالية للمصريين منذ رحيل الخبراء الســوفييت سيئة للغاية .. مما يجعل تجدد الحرب بمثابة انتحار كامل للجيش المصرى ..

وتزف صحيفة (الاكسبريس) الفرنسية فى ابريل ١٩٧٢ البشرى الى قرائها حين تكتب : تختبر اسرائيل النظامالدفاعى الجوىالمصرى بصفة منتظمة وتدل النتائج التى توصل الخبراء العسكريون العالميون اليها ان مصر أصبحت بعد رحيل الخبراء السوفييت تشبه كيسا فارغا . فأجهزة الرادار فيها شبه عمياء .. كما تتميز ردود فعل وسائل الدفاع الجوى بها بالبطء والخمول .

وفى ٨ فبراير ١٩٧٣ وقبيل حرب أكتوبر بنحو ثمانية أشهر فحسب .. كان مراسل الفيجارو الفرنسية النشيط قد كتب مقالا افتتاحيا فى صحيفته جاء فيه : ان الفضائح والمرارة والشــعور بالاحباط تجتاح وحدات الجيش المصرى عامة .. ووحدات الدفاع الجوى بصفة خاصة .. فقادة التشكيلات الميدانية المصرية المقاتلة يمضون يومين فقط من الاسبوع فى الجبهة .. بينما يقضون بقية الاسبوع (للتسلية) فى القاهرة .. ان الجيش المصرى لم يكن جريحا مثلما هو الآن .. فلم يعد لديه مستشارون سوفييت أو روح قتـــال ..

كيف ابتلع الاسرائيليون الطعم .. ؟

لقد تعمدت مصر تسريب تقارير مضللة فى أعقاب رحيـــل

الخبراء السوفييت الى اسرائيل والدوائر العسكرية الغربية ...
كانت هذه التقارير تفيد بأن شبكة الصواريخ المصـــرية والأجهزة التكنولوجية المتقدمة قد أصبحت بلا قيمة أو فائدة بعد رحيلهم .. كانت هذه التقارير مدعمة ببيانات تفصيلية (مطبوخة) بدقة وذكاء حتى صدقتها كافة الدوائر العسكرية والسياسية فى اســــــرائيل والعالم .. وبذلك ابتلعت القيادة الاسرائيلية (الطعم) على الوجه المطلوب بالدقة فنامت فى اغفاءة على اســــاس أن مصر قد انتهت (تكنولوجيا) وأن كل مالديها من معدات للدفاع الجوى أصبح عديم القيمة والفائده ..

غير أن التحدى ظل قائما بحدة بين سلاح الجو الاسرائيلى المدعم حديثا بطائرات الفانتوم وسكاى هوك وبين القيادة المصرية التى كانت قد عقدت العزم فى عناد وتصـــــميم على بناء حـــائط الصواريخ العظيم على امتداد وفى عمق خط المياه على طول قناة السويس وذلك فى الفترة التى أعقبت حرب ١٩٦٧ .. وحتى وقف اطلاق النار (أغسطس ١٩٧٠) فيما عرف بحرب الاستنزاف .

وفى أوائل شـــهر يونيو ١٩٧٠ كانت قوات الدفاع الجوى المصرية قد كسبت التحدى .. وأثبتت الارادة المصرية انها أقوى من قصف العدو الجوى وأصــــــلب من مئات الآلاف من أطنان القنابل والصواريخ ..

كانت اللمسات الأخيرة قد بدأت تأخذ مكانها فى حائط الصلب المصرى .. اكثف غابة صواريخ عرفها العصر الحديث .. بما تمثله من أقوى نظام دفاع جوى شهدته الحروب فى سجلها الحافل .

أن رجال دفاعنا الجوى يطلقون على هذه المرحلة فى فخر واعزاز اسم (مرحلة تأديب الطيران الاسرائيلى) كما أنه مما لاشك

فيه كذلك أن رجال سلاح الجو الأسرائيلى يذكرون هذه الفترة الحاسمة بكل الأسى والمرارة .

ففى يوم ٣٠ يونيو ١٩٧٠ وكالمعتاد قام العدو بدفع طائراته القاذفة المقاتلة فى محاولة للاغارة على مواقع الجيشين الثانى والثالث بجبهة القتال .. هنا حدثت المفاجأة .. غير السارة بطبيعة الحال التى أذهلت اسرائيل وطياروها وقيادتها جميعا .. لقد هربت طائرات الجيش الذى لا يقهر بعد أن خلفت تذكارا فوق رمال مصر . أربع من طائراته الجديدة التى تحولت الى قطع من الخردة وارد أمريكا .. وثمانية من طياريه استقروا فى أحد المعتقلات بالقاهرة بينما أصيبت له ١٢ طائرة أخرى معظمها من طراز (الشبح) فانتوم أسطورة اسرائيل وفخرها .

وبعد ذلك بأربعة أيام أمتنع فيها طيران اسرائيل تماما عن الاقتراب من الجبهة حاولت القيادة الاسرائيلية توجيه ضـــــربة انتقامية كنوع من أنواع (الردع الجسيم) كعادتها فوق المنطقة التى أطلقت عليها اسم (مصيدة الموت) لم يحقق سلاح الجو الاسرائيلى شيئا .. اللهم اذا اعتبرنا أن اسقاط طائرتين أخريين له هدفا ..

هذا الأسبوع أطلقت عليه الصحافة العالمية (أسبوع تساقط الطائرات الاسرائيلية) .

وبعد طول تردد من القيادة الاسرائيلية وفى يوم ١٨ يونيو ١٩٧٠ قامت بدفع ٢٠ طائرة من طراز فانتوم للاغارة على منطقة القنطرة .. فى محاولة لقصف قوات الجيش الميدانى الثانى .. وقبل أن تلقى أية طائرة بقذيفة واحدة ، قامت وسائل دفاعنا الجوى باسقاط ٣ طائرات بطياريها فوق الأراضى المصرية غربى القناة . بينما انفجرت الطائرة الرابعة بطياريها كذلك فوق مطار المليز وسط

سيناء .. وبذلك قتل فى هذه الغارة الحمقاء ثلاثة من قادة الاسراب الاسرائيليين وكان وقعها على الاسرائيليين داخل الدولة الصغيرة شديدا ..

بلغت خسائر العدو خلال الفترة من ٣٠ يونيو ١٩٧٠ وحتى نهاية يوليو طبقا لبياناته الرسمية ١٦ طائرة بينما الحقيقة التى اكدتها كذلك مجلة (افييشن ويك) الامريكية المختصة بشئون الطيران الحربى أن خسائر اسرائيل بلغت ١٧ طائرة مدمرة الى جانب ٢٤ طائرة أصيبت باصابات بالغة .

وتأتى ساعة الحساب واندلعت الشرارة الأولى بعد ظهر ٦ اكتوبر .. ويقتحم جيش النيل القناة تحت ستار أكثر من ٢٠٠٠ مدفع ميدان ثقيل وينقضون على حصون بارليف وتبدأ المبارزة الدموية بين سلاح الصواريخ وقذائف سلاح الجو الاسرائيلى .. بين نيران الأرض وقذائف السماء ..

بدات الملحمة بعد ٤٠ دقيقة من بداية الهجوم المصرى حيث جاء رد الفعل الاسرائيلى .. وانطلقت الطائرات الاســرائيلية تهاجم شمالا وجنوبا .. دون أن تتمكن من تحديد الأماكن المحددة لاقامة رؤوس الكبارى المصرية فى شرق القناة .. حيث بدأت تتساقط فى تواتر سريع أذهل العالم وعلى راسه قيادة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية المتعجرفة جدا ..

واذا كان العدو بدأ فى شن هجماته الجوية المضادة بعد ٤٠ دقيقة من بداية الهجوم المصرى .. وبلغت فى اليوم الأول للحرب ٤٤٦ طلعة جوية كان هدفها منع وتدمير القوات العابرة للقناة . فان وسائل دفاعنا الجوية العملاقة متمثلة فى غابة الصواريخ تصدت لها فى قوة وعنف وسقطت منها الكثير ومنعتها من تنفيذ أهدافها رغم أن العدو حشد فى بعض غاراته ٢٦١ طائرة دفعة واحدة .

وعندما حاول العدو اســـتخدام اسلوب الهجوم الذى اتبعه عام ١٩٦٧ بالطيران المنخفض .. ثم الاندفاع فجاة فوق الهـــدف للقصف والعودة الخاطفة .. تصدت لها هذه المرة صواريخ سام ٧ المضادة للطيران المنخفض والمدفعية المضادة للطائرات والرشاشات رباعية المواسير لاجبارها على الارتفاع ولتســـلمها بدورها الى صواريخ ٢ ، ٣ ، ٦ حيث تتولى هى الأخرى مطاردتها حتى التدمير الكامل ولعل هذه المفاجاة كانت سببا فى ذلك القرار الذى اتخذته القيادة الاسرائيلية فى نهاية اليوم الأول للحرب وابلغت الطيارين بضرورة الابتعاد عن الهجوم على القوات المصرية الى مسافة ١٥ كم شرق قناة السويس .

وهكذا تحولت ملحمة العبور الى جانب الستار الهائل من نيران المدفعية المتبادلة بين الجانبين الى مباراة اخرى بين الأرض والسماء .. كان نجاحها يعتمد بالدرجة الأولى على غطائنا الجوى ضـــد انقضاض طيران العدو ..

كانت وسائل دفاعنا الجوى المتفوقة ممثلة فى شبكة الصواريخ الثابتة والمتحركة الموزعة على طول الجبهة والتى وصفت بانها اقوى شبكة دفاع جوى فى العالم بالنسبة الى مســـاحتها مقتلا حقيقيا للطيران الاسرائيلى المهاجم ..

وهنا نلاحظ حقيقة غير عادية وعلى قدر غير عادى من الأهمية والمغزى .. لقد تمت عملية اقتحام القناة دون الاعتماد على الغطاء الجوى التقليدى .. والذى يعنى مظلة من الطيران تحمى القوات المهاجمة ضد الهجمات الجوية .. وبدلا من ذلك كاستخدمت القوات المصرية شـــبكة الدفاع الجوى وكانت طفرة ابعد ما تكون عن الكلاسيكية .. وتعد أول تجربة عسكرية فى تاريخ الحروب الحديثة

تتسم فيها المواجهة بين سلاح طيران معاد وبين نظام دفاع جوى بحت على أرض صحراوية مكشوفة ..

وهكذا جرى حوار هائل بين ستارتين من النيران .. احداهما نازلة من السماء والأخرى صاعدة من الأرض .. وانتصرت ستارة النيران الصـــــاعدة على الستارة النازلة .. والسنة الأرض على السنة السماء .. وبدلا من أن يغرق طيران العدو عملية العبور فى القناة كما كان يأمل .. وكما ظل طويلا يهدد ويتوعد .. تساقطت طائراته كلها كالفراشـــــات المحترقة .. كما عبر عن ذلك جميع المراقبين وبدرجة رهيبة ومفزعة لم يسبق لها مثيل .

وهكذا كسبت مصر معركة الدهاء فى قصة غابة الصواريخ كلها من البداية للنهاية ..

الفصـــــل الثـــــامن

الانســـان فى مواجهـــة الدبابات

هل يمكن للانسان ، الجندى العادى ، رجل المشاة ، مهما كان نوع السلاح فى يده .. ان يواجه الدبابة ذلك السلاح الرهيب قلاع النيران المتحركة ذات المدافع والرشاشات ودروع الصلب المزدوجة والجنازير ..

الرد .. لا يوجد مقارنة .. والمواجهة بين اللحم والصلب والنيران معناها سحق الانسان (شوى لحمه) وتمزيقه .. حتى لو لم تطلق عليه الدبابة نيرانها .. وانما مرت فوق جسده ..

غير أن ما حدث فى ساحات العمليات والمعارك فى داخل سيناء قلب الصورة تماما . وغير كل الموازين والتقديرات العسكرية وقوانين الحرب الحديثة واستراتيجية حرب المدرعات .. حيث تمكن اللحم البشرى من ذبح الدبابة وتدميرها وحرقها حتى تتحول الى كتل من الحديد الأسود المصهور .

ذلك أن رجل المشاة المصرى أعاد الثقة فى قدرة الانسان فى مواجهة قوة النيران العاتية .. وكان فارسا يقتحم المستحيل ومقاتلا قادرا على المناورة بسرعة وشجاعا لا يخاف الخطر .. ومخاطرا يركب اشد الاخطار .. وندائيا يستطيع فى دقائق أن يحقق المستحيل حتى ولو تمكنت الدبابة من المرور على جسده ، فانه ينسفها ولا يتركها تقتله بلا ثمن ..

مشاة جيش النيل قلبوا كل الموازين وكانوا اعظم مفاجآت الحرب .. هذه ليست كلمات مبنية على مشاعر عاطفية .. انما على رؤيا العين خلال سير المعارك منذ الدقيقة الأولى للحرب حتى الطلقة الأخيرة ، عند اقتحام دفاعات العدو (خط بارليف) والخطوط الأخرى الخلفية اثناء مواجهة الموت فى حرب المدرعات الطاحنة والمروعة التى دارت بلا توقف تقريبا على امتداد ١٧ يوما .

الدبابة ظهرت كسلاح حاسم ورهيب وجديد فى الحرب العالمية الأولى تجتاح الحصون وتدمر خطوط الخصم .. اخـذت مكانها البارز والخطر فورا بين كل اسلحة هذا العصر بكل ما تمثله من قوة نيران كثيفة مؤثرة ومدمرة .. تدريع قوى لبيث الذعر والهلع بين صفوف الخصم عندما يجد نفســه في مواجهة قلاع الموت المتحركة ..

عندما اجتـاحت الجيوش الألمانية النازية العالم فى بداية الحرب العالمية الثانية ، كانت النظريات العسكرية قد استقرت على أن الدبابة لا تواجهها سوى دبابة مثلها بشرط أن (تضارعها) فى قوة التسليح وضخامة الدروع ان لم تكن تزيد عليها .

هذا ما حدث تماما عندما نشبت الحرب العالمية الثانية حيث قامت القوات الألمانية المدرعة باجتيـاح بولنده وتشيكوسلوفاكيا وبلجيكا فى عدة عمليات سريعة وخاطفة ، زادت مكانة الدبابة أو القوة المدرعة .. حين شاركت فى أعظم معاركها على مســارح الحرب الصحراوية فى صحراء مصر الغربية (العلمين) والصحراء الليبية ، واعادت التأكيد الحاسم بانه لا مناص فى حرب الصحراء من الدخول فى معارك الدبابات .. دبابة لدبابة .. لتحقيق هزيمة الخصـــم .

غير ان القيادة العسكرية المصرية قلبت هذا المفهوم تماما بعد ٢٨ سنة على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، واحبطت احد المفاهيم التى تعد من المسلمات ليس فى الجيش الاسرائيلى وانما فى كل جيوش العالم التى تقوم على نظرية الدبابة تقاتل دبابة فى معارك الصحراء .. واذا دفع الخصم بكتيبة مدرعة فلابد ان تهاجمه بلواء مدرع حتى تضمن صده والقضاء عليه ، لأن المدرعات تسحق المشاة، التى لا تتوفر لها وسائل مواجهة هجمات مدرعة كثيفة .

حين استخدمت القيادة العسكرية فى مصر ، رجال المشاة فى مواجهة المدرعات الاسرائيلية بأسلوب فعال .. وكفاءة لم تحدث من قبل فى معارك الصحراء .. بهدف تحطيم الهجمات الاسرائيلية المدرعة بأقل التكاليف مع تحقيق أكبر الخسائر فى قوات العدو .. فانها قلبت هذا المفهوم تماما .

فى الوقت الذى كانت الدوائر العسكرية فى معظم جيوش العالم قد وصلت فى اعتقادها ان المشاة فقدت مكانتها فى حرب الصحراء فى ظل سيادة الدبابة والمصفحة وباقى أنواع المدرعات والمجنزرات .. من هنا كانت المفاجأة .. مفاجأة قدرة الانسان فى مواجهة الدبابة ..

ان هذه السطور ليست فى الواقع تقييما لما دار على أرض المعارك ، ذلك يحتاج الى كتاب أو عدة كتب .. والحرب وان توقفت بصورة رسمية الا أنها لم تنته بعد ولازالت مستمرة ، ولا أعتقد أن العدو سيعود من جديد لشن هجمات كبيرة بالمدرعات مرة أخرى بعد اعلان موافقته على قرار وقف اطلاق النار .. فخسائره فى المدرعات بأنواعها خلال حرب الـ ١٧ يوما أكبر من كل تقدير له وكل حساباته ، ولا يكون سعيدا اذا عادت عملية الحرب بنفس السرعة التى دارت بها لكى يعود رجال المشاة المصريين ليذبحوا المدرعات مرة أخرى كما فعلوا من قبل ..

فى المراحل الأولى للقتال على جبهة قناة السويس ، حقق مشاة جيش النيل أول ضربة من نوعها فى تاريخ الحروب .. انهم قاموا بمختلف الوسائل باقتحام القناة حاملين الاسلحة فوق ظهورهم وتوغلوا فى داخل سيناء وخلف حصون بارليف حيث أقاموا الأوكار ومصايد الموت لدبابات اســــرائيل ، كان هذا الاندفاع الخاطف والاقتحام العاصف الذى دمر كل الهجمات المدرعة الاسرائيلية على رؤوس الكبارى للجيشين الثانى والثالث الميدانيين .. لم يكن فى تقديرات العدو بأى صورة من الصور .

بل ان المفاجأة الأكثر رعبا للعدو كانت فى قدرة رجال المشاة الذين تولوا تدمير واحراق ٧٥٪ من الدبابات الاسرائيلية بالصواريخ المحمولة على الأكتاف أو المواجهة عن قرب ، مع تحقيق تعاون رائع مع باقى الأسلحة الأخرى المضادة للدبابات ، بما فى ذلك وللمرة الأولى نيران المدفعية الميدانية الثقيلة التى شاركت فى ســـــحق الهجمات المدرعة المضـــــادة ..

مشاة جيش مصر فى هذه الحرب قاموا بواجب رئيسى وخطر فى القتال . كما ان قتالهم ضد الدبابات الاسرائيلية لم يقتصر على الجانب الدفاعى فحسب ، ذلك الدفاع الذى نفذوه باقتدار وثقة ، بل ايضا بقيامهم بشن الهجمات الضارية بالتعاون مع مدفعيتهم ضد القوات المدرعة الاسرائيلية ورجال المظلات الذين كانوا تحت قيادة الجنرال شارون ، حيث قاتلوا بشجاعة وتصميم حتى انهم تمكنوا خلال الساعات الثمانى والأربعين الأولى من القتال من الاستيلاء على مركز القيادة الاسرائيلى الأمامى .. تبة الشجرة .. والذى كان مدعما بالعربات نصف الجنزير والآليات المدرعة الأخرى وطردوا القوات الاسرائيلية منه .

وبينما كانت القوات المصرية مسيطرة تماما على جبهة القتال منذ الدقيقة الأولى للحرب .. كان رجال المشاة فى شجاعة وصراحة قد تمكنوا من السيطرة على ميدان المعركة .

وعندما غيرت قيادة العدو اســـــاليب وتكتيكات هجماتها بعد الضربات القاصمة التى تلقتها على أيدى مشاة مصر البواسل ، وبدأت فى دفع الدبابات والمدرعات باقصى سرعة داخل المواقع والتشكيلات المصـــرية لكى تتفادى التعرض لوقت طويل لنيران المدفعية المصرية .. تلقفتها نيران رجال المشاة بمدافعهم الخفيفة المضادة للدبابات ومدافع البازوكا والصـــــواريخ والقنابل اليدوية وساعدت الخطة الجديدة للعدو على تحقيق خسائر أكبر فى مواجهة مشاة مصر ..

وهناك على الحد الأمامى من الساتر الترابى الهائل ، كان مشاة مصر هم أول من قهر القلاع وحطم الحصون حين تسلقوه بالحبال واستولوا على المصاطب التى كان العدو قد أعدها لدباباته وقاموا ببث الألغام فيها لتدفع جماعات منهم الى الشرق من سيناء . حيث أقاموا الكمائن لاقتناص الدبابات التى حاولت دون جدوى نجدة حصون خط بارليف ، وقاموا بأجسادهم وصدروهم باقتحام مواقع العدو الحصينة وقلاعه القوية ..

انقض رجال المشـــاة على مواقع العدو فى هجمات مكثفة ليحطموا اساطير جيش صهيون وليدور القتال الدامى داخل القلاع والحصون بالسلاح الأبيض والأيدى والقنابل اليدوية فى ذات الوقت كانت جماعات منهم تتوغل داخل سيناء ..

وكانت مفاجأة شديدة الوطأة على العدو الذى فوجىء بهذا الحجم العظيم من المشاة تظهر فجأة فى كل مكان من سيناء وطوال

أيام الحرب ليقاتلوا تتالا مستميتا على الطرق والمضايق ضـد مدرعات العدو التى حاولت الاندفاع لاجهاض عملية اقتحام قواتنا وانشاء رؤوس الكبارى .. فواجهوا دبابات العدو بأسلحتهم الخفيفة المضادة للدبابات وقنابلهم اليدوية والقوا بأنفسهم على طريق تقدم العدو وعلى ظهورهم الالغام المضادة للدبابات حتى تنفجر فوق أجسامهم المدرعات الاسرائيلية مخلفين على رمال سيناء بصمات شريفة تشهد بأن هذه المنطقة او تلك قد استشهد فوقها فدائى قدم حياته لمصر كى تنجح عملية اجتياح حصون بارليف لتحرير سيناء المحتلة ..

حكى لى أحد قادة سلاح المدرعات المصرى الكثير عن بطولات رجال المشاة فى حرب الدبابات فى سيناء .. والخسائر التى الحقوها بالمدرعات الاسرائيلية .. قال ان رجل المشاة المصرى أعد اعدادا خاصا لأن هذا الفرد العادى يشترط فيه لكى يواجه الدبابة أن يكون على درجة عالية من الشجاعة والاقدام والجرأة ، لأنه سيواجه بجسده وصدره العارى بلا دروع الدبابة بدروعها المهيبة وأسلحتها الرهيبة ..

واذا كان رجل المشاة المعد جيدا يستطيع حمل القنابل التى يحملها لقصف الدبابة بالاضافة الى وزن المدفع عديم الارتداد الذى يصل وزنه الى ٣٠ كم ، فانه قادر بهذه الأسلحة التى لا يزيد ثمنها عن الف دولار على مواجهة الدبابة التى يصل ثمنها الى أكثر من ربع مليون دولار وتحمل ذخيرة تصل الى ١٠ آلاف دولار أخرى ويقودها طاقم من ٤ أفراد ويبلغ وزنها ما بين ٥٠ الى ٦٠ طنا وتصل تكاليفها الى نحو ٣٠٠ الف دولار اذا حسبنا التجهيزات الأخرى مثل الأشعة تحت الحمراء وأجهزة التنشين الليلى والأشعة فوق البنفسجية والليزر ومصادر اخراج الدخان الكثيف ..

كانت تلك هى المفاجأة المصرية التى قلبت كل الموازين حيث تمكن رجل المشاة بصاروخ واحد قد لا يصل ثمنه الى ٨٠ دولارا ان يدمر دبابة ويقتل ٤ هم أفراد طاقمها .. هكذا قام رجال المشاة المصريون بما يشبه المعجزة فى حربهم مع مدرعات اسرائيل .

هكذا كان الانسان المصرى خصما عنيدا للدبابة والمدرعة .. وصنع اكبر مذبحة للدبابات لأول مرة فى تاريخ الحروب ..

الفصل التاسع

الرجال والبحر والحرب

الحرب فى البحر تختلف تماما عن القتال فى البر .. هناك فى البحر توجد المياه ولا شىء غيرها لا توجد طرق أو تلال رملية وجبال صخرية ، ولا أشجار .. البحر والسماء ولا شىء بينهما .. نتيجة المعركة فى البحر معروفة .. محددة .. قاتل أو مقتول .. منتصر أو مهزوم .. أما القتل تدميرا بالصواريخ .. أو مقذوفات الموت الاخرى ، ومن ثم الموت الفورى أو الموت جريحا وغريقا اذا لم يكن هناك الانقاذ المناسب فى اللحظة المناسبة ..

معارك البحرية المصرية قديما كانت صورة من تلك المعارك التى يسمونها كلاسيكية الحرب البحرية .. غير أن تلك الصورة تغيرت تماما من خلال التطوير والتعزيز المستمر والتدريب العلمى الدقيق ، وقصة قيام بحريتنا المصرية بتدمير المدمرة الاسرائيلية الكبيرة ايلات فى المياه الاقليمية المصرية بالقرب من بورسعيد بعد ١٣٨ يوما فقط من حرب يونيو ١٩٦٧ خلال دقائق معدودة .. تدمير هذه المدمرة اكبر دليل على ذلك .

كان اغراقها نذيرا قويا وخطيرا لاسرائيل ، لكن القوات الاسرائيلية المنتشية والمغرورة بانتصارات زائفة ، والمدعومة من الولايات المتحدة بالأسلحة الحديثة بلا حدود لم تفكر طويلا فيما جرى (لايلات) ورجالها الـ ٣٠٠ الذين قتلوا وغرقوا فى أسرع هجوم بحرى قامت به البحرية المصرية .. مع أن مصر وقتها كانت

مازال فى البدايات الأولى لانشاء خطوط دفاعها ضـــــد الجيش الاسرائيلى .

ورغم أن قواتنا البحرية أسندت اليها مســـئولية الدفاع عن سواحلنا التى تصـــــل لأكثر من ١٦٠٠ كم على البحرين الأبيض والأحمر ، فان هذه القوات وجهت سلسلة من الضربات الموجعة ليس ضد بحرية العدو فقط .. بل ضد قواته فى سواحل شمال وجنوب سيناء ، كان أساس النجاح والنصر فيها للرجال من القادة والجنود فى تشكيلات القوات البحرية .

واذا كانت المهمة الأساسية للقوات البحرية فى حالة الحرب هى الدفاع عن سواحلنا وتأمين القوات وخطوط المواصلات الى جانب المهمة الرئيسية وهى قطع خطوط مواصلات العدو البحرية ومنع وصول الامداد والمواد الاستراتيجية للعدو عن طريق البحر مما يؤثر على امكانياته الاقتصادية وبالتالى امكانياته العســـــكرية وقدراته القتالية برا وبحرا وجوا ، الى جانب معاونة أعمال قتال القوات البحرية التى تعمل على المحاور الساحلية خاصة فى المناطق البعيدة عن مدى نيران المدفعية البرية مع تحقيق الحماية لأجناب القوات البرية ضد تدخل العدو البحرى .

فان ذلك كله حققته قواتنا البحرية على امتداد مســـــارح العمليات وسجل الحرب فيما بين السادس من أكتوبر ووقف اطلاق النار الواقعى فى ٢٩ أكتوبر يؤكد ذلك كله .

فى اللحظات الأولى من القتال انطلقت الوحدات البحـــرية المصرية من مدمرات وغواصات ولنشات صـــــواريخ وطوربيدات ووحدات صاعقة بحرية وضفادع بشرية ومن خلال تنسيق وتخطيط دقيق يوجهون أقوى وأعنف الضربات للعدو .

كان أولها أغلاق باب المندب وفرض حصار بحرى على أى سفينة تتجه الى اسرائيل .. وفى مسرح العمليات البحرية وفى البحر الأحمر قامت وحدات المدفعية الساحلية بمعاونة قوات الجيش الثالث بقصف مواقع العدو فى مواجهتها ، وقام سرب من لنشات الصواريخ بقصف أهداف العدو فى شرم الشيخ وفى نفس الوقت الذى وجهت فيه ضربة صاروخية ضد منطقة راس سدر واندلعت الحرائق والانفجارات فى مواقع العدو .

فى نفس الوقت وخلال الساعات الأولى للقتال قامت بطاريات المدفعية الساحلية فى بورسعيد بقصف قلعة العدو الحصينة فى بورفؤاد والحصن المنيع عند الكيلو ١٠ جنوب بورفؤاد ، كما قام سرب من اللنشات الصاروخية المسلحة بصـــــواريخ غير موجهة بانزال ضربة مركزة على تجمعات العدو فى رمانة على المحـــــور الشمالى وقام بتشكيل آخر بمهاجمة مرسى العدو فى راس برون على البحر المتوسط ..

ودار العديد من المعارك بين لنشـــاتنا الصــــاروخية وبين اللنشات الصـــــاروخية للعدو حيث كانت اول مواجهة بحرية فى التاريخ البحرى بالصواريخ الموجهة بحر ـ بحر ليلة ٨ ـ ٩ أكتوبر وبفضل طول مدى صواريخنا عن صـــــواريخ العدو ودقة أجهزة الصواريخ واجهزة الاكتشاف ، فاجأت صواريخنا العدو وهو مازال متخذا تشكيل الابحار ، واطلق التشكيل المصرى صواريخه الموجهة فاصابت أهدافها بدقة متناهية وما هى الا لحظات معدودة حتى كانت اربع قطع من تشكيل العدو تتهاوى الى القاع .

وفى لية ١٥ ـ ١٦ أكتوبر كانت هناك معركة بحرية فريدة حيث اشتبك سرب من لنشاتنا الصاروخية مع أربع قطع بحرية للعدو امام أبى قير ودمرنا للعدو لنشين وأصيب الثالث وشحط أمام

رشيد حيث قامت طائراتنا بمهاجمته مع فجر يوم ١٦ أكتوبر لتجهز عليه تماما ، وخلال فترة العمليات اغرقت غواصـــــاتنا فى البحر الأبيض المتوسط سفينتين الأولى حمولة ٤٦ الف طن والأخرى حمولة الفى طن .

وكانت عمليات قواتنا البحرية لقطع مواصلات العدو البحرية مؤثرة للغاية ، فمن بين ٢٠٠ سفينة كانت تدخل موانى اسرائيل من البحر المتوسط شهريا انخفض العدد فيما بين ٦ — ٣٠ أكتوبر لتصبح ٢٣ سفينة فقط ، اما فى البحر الأحمر فكان الحصار كاملا اذ لم تترك سفينة اســــرائيلية واحدة تخرج أو تدخل ميناء ايلات طوال الحرب .

وقامت الصاعقة البحرية بغارة على مرسى بلاعيم فى ليلة ٧ — ٨ أكتوبر حيث نسفت حفار البترول المتمركز فيها ، وفى الليلة التالية ٩ — ١٠ اغارت فصيلة من الصاعقة البحرية على منطقة أبو درية على خليج السويس ، وقامت بتلغيم مفارق الطرق ونسفت مستودعات البترول الموجودة فى المنطقة ، وفى ليلة ١٥ — ١٦ تمت عملية اغارة ناجحة بواسطة الصاعقة البحرية على منطقة الشيخ بيتان جنوب الطور .

وعندما حاول العدو أن يغير بوحـــدات من الكوماندوز على قواعدنا البحرية قامت قواتنا بتدمير قارب له بالغردقة بطاقمه من الضفادع البشرية شرق جزيرة جفتون بالبحر الأحمر صباح يوم ١٢ أكتوبر ، كما دمرنا للعدو لنشا مسلحا وعددا من قوارب المطاط المحملة بالكوماندوز عندما حاول الاغارة على مرسى الســــــادات والأدبية ..

وفى معركة الضفادع البشرية عند بورسعيد التى دارت ليلة ١٦ — ١٧ عندما حاول العدو الاغارة بواسطة الضفادع البشرية

على قاعدة بورسعيد كان رجالنا له بالمرصاد حيث أغرقوا له أحد القوارب ودمروا مجموعة الضفادع البشـــرية وانتشـــال جثث أفرادها ..

ان المعارك القوية والناجحة التى انتصرت فيها قواتنا البحرية تؤكد انها خاضت أربع معارك رئيسية بالصواريخ البحرية وقصفت اثنى عشر هدفا ساحليا معاديا واغرقت خمس سفن « منها ناقلتا بترول » وصدت بنجاح تسع هجمات بحرية للعدو ضد سواحلنا ، ونفذت أربع عمليات خاصة ، وبتفصيل أكثر اغرقت بحريتنا للعدو تسعا وعشرين قطعة بحرية من أنواع مختلفة منها سبعة لنشات صواريخ .. وناقلة مجهزة لحمل طائرات الهليوكوبتر وناقلة بترول متوسطة واخرى صغيرة وثلاث سفن ، كما اصابت سبع قطع معادية اخرى واسقطت للعدو اثنتى عشرة طائرة هليكوبتر ..

ونجحت قواتنا فى معركة غلق باب المندب فى وقف وصول سفن وناقلات البترول الايرانى الى اسرائيل طوال أيام الحرب و ٦ ملايين طن كانت اسرائيل تنقلها من خليج السويس الى ايلات لسد احتياجاتها البترولية مما كان له تأثيره على اقتصاديات العدو وموقف امداداته البترولية بالاضـــــافة الى التأثيرات المختلفة على الصناعات الأخرى التى تعتمد على البترول .

هكذا كانت بحريتنا تعزف البعد الثالث فى سيمفونية أكتوبر .. بسواعد وعقول وقلوب أبطالنا فى البحر ..

الفصـــل العاشــــر

رجــال لا يعرفــون الخــوف

خلال أيام الحرب القاسية كنت أتابع بفخر شديد نتائج عمليات وهجمات رجال الصاعقة على قوات العدو ، ان الفرق كبير بين شجاعتهم وشجاعة المظليين الاسرائيليين ، لقد شاهدت جانبا من معارك الصاعقة فى سيناء ، وفى مناطق الثغرة وخاصة فى جنوب الاسماعيلية عندما حاول العدو الوصول الى مداخلها الجنوبية فى محاولة لحصار المدينة من الخلف .

لقد اذاقوا القوات الخاصة والقوات المدرعة التى كان يقودها (شارون) للوصول الى الاسماعيلية مرارة الهزيمة الكاملة ، رغم ما تعرض له الرجال من هجمات جوية ضارية ليلا ونهارا فى الـ ٤٨ ساعة الأخيرة من الحرب ، حيث لم يكن هناك هدف للعدو الا تدمير قوات الصاعقة المصرية فى غرب الاسماعيلية .

واذا كان رجال الصاعقة المصرية أول من عبر قناة السويس جوا وبرا سواء داخل طائرات الهليوكوبتر التى اسقطتهم خلف وأمام مواقع العدو وتجمعاته ومراكز حشـــوده ودباباته .. ليكونوا فى مواجهة هجوم العدو المضاد ويمنعوه من انقاذ خط بارليف ، حتى تعبر الدبابات المصرية القناة ، وهجم الذين كانوا فى طلائع الزحف المصرى الهائل يعبرون القناة بأسلحتهم الخفيفة وقنابلهم وينقضون على حصون بارليف ليكون لهم شرف الالتحام الأول بجنود ودبابات العـــدو ..

فان هؤلاء الرجال كان لهم شرف القيام بعدة عمليات بطولية .. فهم الذين قاموا بتطهير مدينة القنطرة شرق من العدو وأسروا أفراده الأحياء جميعا ، وكانوا هم الذين دافعوا عن مدينة الاسماعيلية عندما حاول العدو اختراق مداخلها الجنوبية حتى اللحظات الأخيرة لوقف القتال ، ومنعوه من تحقيق أهدافه ، وكان لهم شرف تدمير حصن العدو فى لسان بورتوفيق حتى استسلم قائده وجنوده ..

فى شمال سيناء قاتل رجال الصاعقة أمام مواجهة الجيشين الثانى والثالث فى عمق سيناء قتالا مستميتا على الطرق والمضايق مع مدرعات العدو وقد نجحوا فى ارباك وتعطيل الهجمات المضادة التى قام بها العدو محاولا احباط عملية انشاء رؤوس الكبارى ، وكانوا يعرفون أن نجاحهم فى هذه المهمة سيعاون نجاح عملية انشاء رؤوس الكبارى .

ومن هنا كان الدافع لهم لكى يواجهوا ببطولة مدرعات العدو وليس لديهم سوى أسلحتهم الخفيفة وقنابلهم اليدوية المضادة للدبابات ، ومن هنا ايضا كان الدافع لبعضهم لأن يلقوا بأنفسهم وعلى ظهورهم الألغام المضادة للدبابات كى تنفجر فوق أجسامهم مدرعات العدو ، مما أذهل العدو وأوقع فى صفوفه أشد حالات الارتباك فى تاريخ الحروب العربية ..

والى جانب ما قاموا به فى عمق العدو نفذ رجال الصاعقة عددا من المهام على قناة السويس حيث قاموا بتصفية عدد من النقط الحصينة ، كما استولوا على بعض التبات التى أعدها العدو لدباباته كمواقع تعمل منها وقاموا بتلغيمها وتنظيم الكمائن عليها ، وقاموا باقتناص دبابات العدو التى جاءت محاولة احتلال هذه المصاطب .

وعندما ارتفع علم مصر عاليا فوق القنطرة شرق ثانى مدن سيناء ، كان هذا المشهد الرائع قد جاء بتضحيات أبناء مصر من رجال الصاعقة الذين انقضوا على المدينة من شمالها وجنوبها وشرقها وطاردوه بين المبانى حتى طهروا المدينة من دنسه الذى ظلت تعانى منه سنوات بعد أن قتلوا معظم أفراده وأسروا منهم ٢٢ فردا بينهم ثلاثة من الضباط .

وعندما شهد العالم عملية استسلام العدو فى موقع لسان بورتوفيق الذى اقتحمه رجال الصاعقة ضمن ما قاموا باقتحامه من مواقع العدو ، فاستولوا على جزء منه وحاصروا الجزء الآخر وظلوا يقاتلون أفراد العدو قتالا مريرا فبعث هؤلاء باستغاثتهم الى قادتهم لتخرج من تل أبيب استغاثة أخرى تتوسل الى رجال الصليب الأحمر أن ينقذوا ما تبقى من أفرادهم فوق اللسان من بين أيدى رجال الصاعقة . . فحضر مندوب الهيئة بشهد بنفسه ومعه العالم كله سبعة وثلاثون فردا للعدو بينهم خمسة ضباط يخرجون من أوكارهم مستسلمين ورؤوسهم منكسة يتقدمهم قائدهم حاملا علم اسرائيل ويتسلم بدلا منه علم مصر من بين يدى قائد كتيبة الصاعقة الذى يأمره بأن يرفع بنفسه علم مصر الخفاق فوق هذه البقعة من الأرض اعترافا منه أمام العالم بحق له الحق فى هذه الأرض .

وكانت كتيبة الصاعقة المصرية التى قامت بضرب موقع لسان بورتوفيق فى حرب اكتوبر هى نفسها التى قامت بالاغارة على نفس الموقع فى حرب الاستنزاف من قبل .

وفى جنوب سيناء قاتل رجال الصاعقة ببسالة منقطعة النظير ، فقد ظلوا فى قواعدهم فى جبال سيناء طوال أسابيع عاشوا فيها أياما غير مبالين بطعام أو شراب أو أى شىء آخر الا أن

ينطلقوا من هذه القواعد للاغارة على أهداف العدو وبث الذعر بين أفراده حتى اضطر لدفع قوات كبيرة من المدرعات والمشاة الميكانيكية لتأمين أهدافه ومواقعه منا لهجمات المفزعة لرجال الصاعقة وكان ذلك تحقيقا لما استهدفته خطتنا فى جذب جزء من قوات العدو الى هذا الاتجاه لتخفيف الضغط على قواتنا المهاجمة فى الشمال هذا بالاضافة الى ما الحقه رجالنا بالعدو من خسائر فى جنوب سيناء حيث نفذوا اغارات على المنشآت البترولية فى البلاعيم وشاتيب وأبو رديس لحرمان العدو من بترول سيناء .

وهناك المئات من قصص البطولة والشجاعة لرجال الصاعقة والكثير من العمليات البطولية الأخرى التى نفذوها خلال أيام الحرب ومن بينها عملية بطولية قامت بها احدى وحداته فى عمق العدو حيث استمرت هذه الوحدة تقاتل فى عمق العدو لمدة ستة عشر يوما دون أن تتلقى أى امدادات ,وكانت هذه الوحـــــدة قد أنزلت بطائرات الهليكوبتر لكى تعرقل تحرك احتياطات العدو داخل المضايق الجبلية ولم تمكن العدو من المرور من هذا الاتجاه الحيوى طوال أيام الحرب وحتى يوم ٢٣ اكتوبر حيث صدرت الأوامر الى هذه الوحدة بالعودة تنفيذا لقرار وقف اطلاق النار .

الفصل الحادى عشر

الخروج من مصيدة الدفرسوار

فجأة .. خرج رجال جيش اسرائيل من مواقعهم يرقصون ويغنون فى حلقات رقص وغناء جماعية فى كل المواقع تقريبا .. من الدفرسوار حتى غرب مدينة السويس .. بعد أن اذاع راديو اسرائيل نبأ توقيع اتفاقية انسحاب الجيش الاسرائيلى من المواقع التى يحتلها غرب قناة السويس الى مواقع أخرى فى منطقة المضايق .. يتولى فيها رجال الأمم المتحدة العمل على طول الخط الفاصل بين الجيش المصرى والقوات الاسرائيلية فى سيناء .

ارتفعت هتافات الكثير من أفراد العدو بالعربية والعبرية بحياة الرئيس السادات فى ذات الوقت هتفوا بهتافات أخرى ضد جولدا مائير رئيس الوزراء (وحيزبون) اسرائيل المدللة .

علق أحد القادة المصريين على موقف القوات الإسرائيلية اليوم بأنهم لا يصدقون أنهم سيخرجون أحياء من الثغرة .. ولهذا فهم سعداء بتوقيع اتفاقية الانسحاب والخروج من المصيدة والعودة أحياء الى دولة صهيون .

ويبدو أن حرب أكتوبر هى الثغرة فقط ، الاختراق الذى حدث فى اليوم العاشر للحرب عند الدفرسوار ، وعاش عدونا يعزف عليه طويلا كأنه حقق نصرا عسكريا عظيما ، كأنه كسب الحرب ، كأن القوات الاسرائيلية مازال تسكن حصون خط بارليف ومازال

منطقة السويس الارض والبشر رهينة مدافعه الثقيلة كما كانت حتى الثانية من ظهر السادس من أكتوبر ..

بعض الناس للأسف وقعوا فى المحظور ، تركوا نتائج الحرب ليتحدثوا فى الثغرة قوات اســــرائيل فيها ، واعطوها أكثر مما تستحق ، وكأن الجيش الاسرائيلى (الشجاع) لم يضرب علقة دموية ساخنة ولم يتقهقر شرقا ، وكأن قواتنا ليست موجودة فى سيناء فى مواجهة العدو ومن خلفه .

اننى لا أحاول أن أقلل مما جرى فى (الثغرة) ، لكننى فى نفس الوقت لا أعطيها اكثر مما تستحق اننا نحتاج بالفعل الى أوسع دراسة وأكبر قدر من المعلومات لكى نحدد حجم الخطأ وما ترتب عليه والاستفادة من الدروس التى خرجنا بها من حرب أكتوبر كلها، فالثغرة أو الاختراق الاسرائيلى عند الدفرسوار هى احدى العمليات العسكرية فى حرب شاملة وليست منفصلة عنها .

رغم أننى كنت أعرف والى حد كبير حجم الوجود الاسرائيلى أو القوة العسكرية الاسرائيلية فى قطاع الدفرسوار من البداية ، وأعرف فى نفس الوقت مدى قدرتنا العســكرية واســتعداداتنا لتصفية هذا الجيب على ضوء نتائج الحرب التى توصلنا اليها عند تطبيق قرار وقف اطلاق النار مساء الثانى والعشرين من أكتوبر .

فاننى أعترف أولا أن انزعاجى الشخصى كان شديدا عندما عرفت بنبأ وصــول المجموعة الأولى من دبابات العدو الى غرب القناة عند الدفرسوار لأول مرة فى ساعة متأخرة من ليلة ١٥ — ١٦ أكتوبر ، غير أن الحرب هى الحرب ، ولا يمكن أن يدار مثل هذا الصراع العسكرى الشامل المرير فى اطار حرب حديثة تستخدم فيها أعقد الأسلحة الالكترونية دون أن تقع أخطاء .

ولابد أن نعترف أن أخطاء الحروب تكون عادة قاتلة ، لأنها تقع فى ميادين القتال ويترتب عليها الكثير من النتائج والمواقف حتى بعد أن تتوقف المدافع ويجلس المتحاربون على مائدة المفاوضات كنت أتابع ما يدور فى الثغرة ساعة بساعة ، وأعرف تماما أن العدو يستميت فى اثبات وجوده بأى صورة من الصور وأنه يقاتل غرب القناة لأول مرة فى تاريخ الدولة الصـــهيونية لكى يغطى على انتصارات مصر فى سيناء ويعيد الثقة لقواته المنهارة معنويا والى درجة كبيرة ، وكان انزعاجى الأكبر معرفتى بطبيعة العدو وأنه سيحاول تدعيم وجوده غرب القناة مهما كانت الخسائر لكى تكون لديه ورقة رابحة عند وقف القتال .

ان قصة الثغرة بدأت ليلة ١٥ ــ ١٦ أكتوبر عندما وصل أول نبأ عنها ، وكان عبارة عن بلاغ تليفونى أن ٣ من دبابات العدو البرمائية عبرت قناة الســـويس عند ملتقى القناة بالبحيرات المرة (المدخل الشمالى للبحيرة الكبيرة) ، المبلغ كان مسئولا عن الدفاع الشعبى ورئيس احدى الوحدات المحلية فى قطاع الدفرسوار ، وكان يبلغ ما حدث الى غرفة الدفاع المدنى والى غرفة عمليات المحافظة ..

بعد ساعة قال نفس المبلغ تليفونيا واسمه عبد الله قنصوه ، انهم ٧ دبابات الآن وليسوا ثلاثة كنت موجودا لحظة وصول هذا الخبر الغريب ، وكان أول خطأ أن من تلقوا النبأ لم يصدقوه .. بل واتهموا الشخص المدنى بعدم الدقة فى وقت لا يسمح بذلك النوع من التكهنات .

بل ان رئيس غرفة العمليات المدنية طلب استدعاء رئيس الوحدة المحلية الذى أبلغ النبأ حتى لا يؤثر بأحاديثه فى الروح المعنوية لسكان المنطقة ، كان هذا أول خطأ ، لأنه كان من المفروض

أبلاغ ما حدث للقيادة العسكرية فى المنطقة بدلا من اتهام المبلغ بالكذب أو عدم الدقة ..

فى اليوم التالى ١٦ أكتوبر تأكد الخبر ، وقيل أنها عملية صغيرة وسوف يتم القضاء عليها ، وكان قد مضى على تسلل دبابات العدو ١٨ ساعة . فى نفس الوقت كان العدو خلال الليل قد دفع بالمزيد من دباباته بعد أن استطاع التمدد من الخط الذى يسيطر عليه داخل سيناء الى منطقة المفاصل بين الجيشين الثانى والثالث ..

وبدأ الطيران الاسرائيلى يدخل المنطقة بكثافة بعد أن نجحت الدبابات المتسللة من ضرب قواعد الصواريخ والدفاعات الجوية فى الدفرسوار ، وحدث فى هذا اليوم تخبط فى المعلومات لأن العدو كان يدفع بالدبابات فى اتجاه أكثر المناطق كثافة بالحدائق وسلسلة الجبال الجنوبية لأنها تمثل حماية طبيعية .

وفى يوم ١٧ أكتوبر دارت معارك عنيفة داخل مناطق أشبه بالادغال ، ورغم خسائر العدو العالية الا أن تسلل واندفاع الدبابات الاسرائيلية من رأس الجسر كان مستمرا بطريقة الاندفاع بسرعة، كان مسترا باعداد قليلة من الدبابات فى كل اتجاه غرب وجنوب وشمال ، وكان هناك أكثر من ١٠٠ دبابة الى جانب المدرعات والأسلحة الأخرى .

استغل العدو الضعف الواضح فى جهاز الدفاع الجوى المصرى فى المنطقة والطبيعة الزراعية والجغرافية ونجح فى زيادة وجوده ومد رأس الجسر الاسرائيلي من الشرق الى الغرب .

واعتبارا من يوم ١٧ أكتوبر وفى اللحظات الأخيرة قبل وقف القتال فى ٢٢ أكتوبر دارت معارك وحشية بين قواتنا فى الغرب

والقوات الاسرائيلية غير أن العدو تجاوز كل الدفاعات وتمكن من الوصول الى غرب السويس والادبية وتمركز حول جبال عايد وان كان قد فشل تماما فى الوصول الى قطاع الاسماعيلية .

أما كيف حقق العدو هذا النجاح الذى تحول من اختراق صغير الى راس جسر غرب القناة فهناك عدة أسباب تكشفت لى أثناء الثغرة وبعد توقف القتال .

منها **أولا** : ان السلاح الجوى الامريكى قام يوم ١٣ أكتوبر باستطلاع كل منطقة القناة وميادين القتال ومسارح المعارك ، كلها وقدم الصور للقيادة الاسرائيلية ومنها كان اختيار منطقة المفاصل بين الجيشين الثانى والثالث التى تقع فى المسافة بين جنوب وشمال الدفرسوار عند ملتقى مياه القناة بمدخل البحيرات الشمالى وهى احدى النقط الصالحة للعبور غربا ، وتلك مسألة معروفة لقواتنا ومعروفة ايضا للعدو ، وكانت من قبل معروفة لقوات الاحتلال البريطانى فى مصر منذ الحرب العالمية الأولى .

ثانيا : ان تطوير الهجوم البرى المصرى فى جنوب سيناء الذى بدأ يوم ١٤ أكتوبر سمح بعبور فرقة من دبابات سلاح المدرعات بل من اقوى فرقه ، وعبرت من قطاع الدفرسوار بينما ترك هذا التطوير الدفاعات لم يكن لدى دفاعاتنا الا الأسلحة المتوسطة أو الخفيفة من الرشاشات مما كان سببا فى نجاح العدو فى ضرب قواعد صواريخ الدفاع الجوى فى المنطقة وبالتالى نجاح طيران العدو فى تقديم أقصى دعم لقواته المدرعة العابرة الى الغرب .

ثالثا : والأهم من ذلك كله ، أن تقدير القيادة العسكرية المحلية عندما اكتشفت عملية التسلل فى البداية لم يكن سليما ، فلم يكن لديها التصور الكافى السريع لما يمكن أن يحدث وكانت

تقديراتها أن المتسللين عبارة عن قوة صغيرة سيكون من السهل التعامل معها بل والقضاء عليها ..

رابعا : التخبط الواضح في المعلومات حول قدرة العدو على التسلل وتأخير وصول المعلومات الى القيادة العامة ، أى اليوم التالى لبداية التسلل ، ثم عدم القدرة على تحديد قوات العدو الحقيقية التى تمكنت من العبور غربا .

خامسا : كان من المفروض أن يكون تصفية الثغرة من البداية بالأسلوب السريع والشامل .. أى عملية موسعة كبيرة وليس بضربات صغيرة ومطاردات فى الحدائق والجبال ، ولعل التضارب فى الأرقام والمعلومات واتجاهات العدو كانت من أسباب عدم القيام بعملية عسكرية كبيرة للقضاء على قوات العدو منذ البداية .

سادسا : ربما يكون من المفيد جدا هنا أن أؤكد أن أحد أسباب نجاح العدو الى جانب الأسباب السابقة هو ثقتنا الزائدة بعد ١٠ أيام من الحرب أذقنا فيها العدو أكبر هزيمة فى تاريخه جعلت بعض القيادات العسكرية والمدنية لا تصدق أن العدو عبر القناة حتى ولو كان ذلك بمساعدة الولايات المتحدة ودعمها العلنى له فى جبهة القتال ..

لكننى أؤكد أن كل هذه الأسباب مجتمعة استفاد منها العدو الى اقصى درجة .

وفي خلال الـ ١٠ ساعات الأخيرة السابقة على وقف القتال وهى الساعات الحاسمة فى الحرب حاولت قواتنا فى شرق القناة تضييق الثغرة فى أضيق مساحة من الأرض ، فهاجم الجيش الثالث الميدانى شمالا وهاجم الجيش الثانى الميدانى جنوبا ودارت معارك ضارية حتى لم يعد يفصل بين الجيشين الثانى والثالث الا مسافة ٤ كيلومترات .

غير أن العدو فى ذلك الوقت كان يقاتل معركة الحياة أو الموت ، فهو لا يستطيع التخلى عن قواته التى تسربت بكثرة غرب القناة لكى تدمرها القوات المصرية ولا يريد أن تضيع فرصة رأس الجسر الوحيد الذى أقامه فى مواجهة ٥ جسور مصرية ، كما أن الدعم الأمريكى بالأسلحة الحديثة كان قد وصل الى الذروة ولم يتحقق وقف الثغرة م نالشرق حتى وقف القتال .

واذا كان العدو قد تمكن فى ٢٢ أكتوبر من تحقيق النجاح فى اقامة رأس جسر واحد غرب القناة فى قطاع الدفرسوار فى مساحة ٧٠ كيلو مترا مربعا فان قواتنا فى ذات الوقت كان لها ٥ رؤوس جسور فى الشرق فى مسافة ٧ آلاف كيلومتر مربع .

كما أن حصار قواتنا للجيب الاسرائيلى لم يمكنه من الانتشار جنوبا وبالتالى حاول فى البداية دخول قطاع الاسماعيلية وعزل الجيش الثانى فلم ينجح ودمرت قواته ، وخاف من الانتشار جنوبا فيعطى الفرصة لقواتنا لتدميره.

هنا لجأ الى عملية اقتحام السويس ليحكم عزل الجيش الثالث غربا ، ففشل الاقتحام ودمرت كل محاولات العدو ، وبقى الجيش الثالث على اتصال تام مع السويس من خلال أحد الجسور الكبيرة التى حاول العدو تدميرها بكل الوسائل وكانت قواتنا تعيد اقامته فورا ..

وفيما بعد وخلال الحرب غير المعلنة (حرب الاستنزاف فى الثغرة) التى بدأتها قواتنا من اليوم الأول من نوفمبر وحتى يوم توقيع اتفاق انسحاب الجيش الاسرائيلى فان قواتنا لم تعط للعدو فرصة واحدة لكى يهدأ أو يستريح أو يتمدد فى مواقع جديدة أو مواقع تبادلية جديدة .

وعندما أقول أن حصارنا للعدو فى الثغرة كان شاملا .. فاننى اقرر الواقع الحقيقى الذى يعرفه العدو .. وكانت الخطة المصرية لتدمير الثغرة تعتمد على قفل الممر الذى يعتمد عليه العدو فى تموين قواته بالغذاء والوقود والذخيرة والسلاح ، وضرب العدو من ٤ جهات فى وقت واحد واشعال المنطقة التى لا تزيد عن ٧٠ كيلومترا فى حريق هائل من القنابل والصواريخ .

وكنا فى موقف عسكرى ممتاز وسلاحنا ٢ فى مقابل واحد للعدو وفى بعض القطاعات ٣ مقابل واحد وقواعدنا الجوية قريبة جدا ودفاعاتنا الجوية فى المنطقة أعيد تركيبها جيدا استعدادا لهذه المعركة وغيرها .. بينما طالت خطوط امدادات العدو لتصبح أكثر من ٣٠٠ كيلومترا شرقا دليه أن يقطعها كلها اذا أراد أن يدعم قواته التى كانت فى حالة ومواقع دفاعية تماما .

ولاشك ان أجهزة الاستطلاع الأمريكية التى حددت للعدو موقف قواتنا أثناء حرب أكتوبر وساعدته لكى يعبر رغم كل خسائره .. ابلغت العدو موقف الجيش المصرى غرب القناة .. وموقف قواته المحاصرة وما جرى من تجربة تصفية الثغرة اليوم الأول لعيد الأضحى فى الثانى من يناير كان انذار واضحا جدا .. خاصة أن العدو قام باستطلاع مكثف عقب هذا الاشتباك الموسع .. وهذا يفسر سرعة حضور البهلوان كيسنجر للقاهرة وقبول اسرائيل بالانسحاب شرقا .

فاذا كانت اسرائيل قادرة على مواجهة الجيش المصرى فى الثغرة لماذا تنسحب .. لقد عاشت القوات الاسرائيلية ما بين التاسع من يونية ١٩٦٧ والسادس من أكتوبر ١٩٧٣ فى خط بارليف الحصين تنظر لقواتنا غرب القناة فى استعلاء شديد وشعور عميق

بالتفوق وغطرســـــة القوة ... حتى قامت قواتنـــا بتدمير الخط الاسرائيلى وتمزيق أبطاله والقذف بهم فى صحراء سيناء .

من هنا فانى أؤكد ان اسرائيل لو كانت قادرة على مواجهة الجيش المصرى غرب القناة لعاشت فى حدائق البرتقال ومزارع الفاكهة ١٠ سنوات اخرى حتى تجد من يعيدها الى الشرق بالقتال

غير أن الدهاء الصهيونى نجح بقبوله اتفاقية الانسحاب الى داخل سيناء فى الهروب من الحصار الشــامل قبل أن يغرق فى مستنقع الدفرسوار .

والعدو انســـحب الى خطوطه الدفاعية الجديدة عند خط المرات ، بينما تقف القوات المصرية فى خطوطها التى وصلت اليها بالقتال حتى اللحظة الاخيرة مساء ٢٢ أكتوبر الماضى ، لم يكن امام أشباح صقور الجيش (الشجاع) الا العودة شرقا هروبا من مواجهة شاملة مع جيش النيل ..

نجح الدهاء الاسرائيلى بمعاونة البهلوان كيسنجر فى الخروج من مستنقع الدفرسوار قبل تنفيذ خطة الجيش المصرى لتدمير ٧٠٠ دبابة ومدرعة حشدتها اسرائيل فى مســـــاحة ٧٠ كم من القرى والحدائق الكثيفة فيما بين جنوب الاســـــماعيلية والأدبية غرب السويس .

لا استطيع هنا ان اخفى مشاعرى ، فقد كنت واحدا من الذين ينتظرون لحظة اشتعال الثغرة والقضاء على القوة الاسرائيلية هناك ، انها اللغة الوحيدة التى يفهمونها لو حدثت معركة تصفية الثغرة لما فكرت اسرائيل بعد ذلك ولعدة أجيال فى مواجهة أخرى مع جيش النيل .

كان من الضرورى جدا تدمير هذه القوات الاسرائيلية وعدم منحها فرصـــــة الخروج سليمة ، لقد كانوا يتوجعون من مجرد الاشتباكات اليومية فى حرب الاستنزاف التى شنتها القوات المصرية طوال اكثر من ١٠٠ يوم ، وليسوا على استعداد لتقديم خسائر جديدة من الأفراد على الأقل اذا افترضنا سهولة الحصـــول على السلاح بالمجان من أبناء العم سام .

لقد ضاعت من أيدينا بالفعل فرصة تاريخية ذهبية لن تعوض لتدمير الصلف الاسرائيلى وسحقه فى ترع ومصارف وحقول الثغرة ومياه البحيرات المرة الى مالا نهاية .

كان لابد من الانتقام الشديد منهم على مافعلوه مع الشيوخ والنساء والأطفال والسكان المدنيين فى كل قرى القطاع الجنوبى من قناة السويس ، لكنهم استطاعوا الخروج ، لا اقول بلا عقاب ولكن بغير عقاب شديد .

لقد دفع العدو ثمنا غاليا للأيام التى قضــــــاها فى ثغرة الدفرسوار ، لقد الحقنا بهم خسائر كبيرة ، فهناك ٤٣٩ عملية شنتها القوات المصرية خلال الفترة من أول نوفمبر حتى توقيع اتفـــــاق الانسحاب منها ٣٩ عملية فى شهر نوفمبر وتضاعف الرقم اكثر من ٥ مرات فى شهر ديسمبر حيث بلغت هجماتنا على قوات العدو ٢١٣ عملية بينما بلغ عدد العمليات من أول يناير حتى توقيع الاتفاق ١٧ يناير ١٧٣ عملية ..

ولقد سجلت هيئة الرقابة الدولية (رجال الأمم المتحدة) هذه العمليات فى تقريرها الذى رفع للأمين العام للمنظمة الدولية بينما اعترفت اسرائيل نفسها بأنها خسرت فى عمليات الثغرة بعد وقف اطلاق النار فى (٢٢ اكتوبر) ٤١ دبابة ومدرعة و١٠ رشاشات

ثقيلة و ٣٦ من قطع المعدات الهندسية وكانت خسائرها فى الافراد ١٨٧قتيلا ولم تذكر خسائرها من الجرحى والمصابين .. والواقع ان هذه الأرقام أقل بكثير من خســـائر اسرائيل الحقيقية ، فهى لا تذيع خسائرها الحقيقية فى الحرب اطلاقا .

غير أن ذلك كله لا يكفى كعقاب للجيش الاسرائيلى من فعلته ضد المدنيين المصريين فى الثغرة كانوا يستحقون معركة ساحقة للقضاء على الرجال (الشجعان) فى مواجهة الفلاحين العزل ، لكن الاتفاقية وقعت وانسحب العدو شرقا ، لم يعد له وجود فى الثغرة ولا عند القناة .. ترك الكثير من الذكريات السيئة المريرة واطلالا وبقايا لخط دفاعى حصين دمرته قواتنا وأحالته الى هشيم .

سوف يذكر من كانوا بداخله ما حدث لهم من جيش مصر الى الأبد ، وسينقلون ما جرى لهم لأحفاد الأحفاد ، لقد ضربهم الجيش المصرى ضربا شديدا وهزمهم ، وأسطورة الجيش الذى لا يقهر لم يعد لها ذكر .

الفصـــل الثاني عشـــر

وتحطمت الدبابات على مدخل السويس

لم يكن من الممكن أن يستمر الجيش الصهيونى (الشجاع) فى حصار لمدينة السويس المصرية الباسلة .. كان عليه أن يواجه معركة تصفية الثغرة التى أعدتها القيادة العسكرية باحكام لتدمير قوات العدو فى ذلك الشريط الضيق فيما بين (الدفرسوار وجنوب مدينة السويس) والتى هرب الجيش الصهيونى منها فى الوقت المناسب بموافقته على الانسحاب الى داخل سيناء .

واذا كان أفراد الجيش الصهيونى (الشجاع) قد رقصوا فرحا وهتفوا بحياة الرئيس أنور السادات عندما أذيع نبأ اتفاق فك الاشتباك وفصل القوات وانسحابهم الى داخل سيناء .

فان أبناء الشعب المصرى قد رقصوا مرتين .. الأولى عندما رقصوا من قبل رقصة الحرب فى مواجهة العدو ودمروا قواته ومدرعاته ودباباته على مداخل السويس ، ولقنوه درسا أمام العالم كله .. وعاشوا يسطرون بروح مصر الخالدة سطورا من النور والنار فى حصار المائة يوم فى واحدة من أشرف المعارك — حرب أكتوبر التحريرية — بالاشتراك مع قواتهم المسلحة .

ورقصوا مرة ثانية عندما تحقق لهم النصر من جديد عندما اضطر الجيش الصهيونى (الشجاع) الى الانسحاب خوفا من الدخول فى مواجهة عسكرية ثانية وحاسمة مع قواتنا المستعدة

لتدميره فى الثغرة ، وخرج عندما لاح له أول أمل فى الخروج بلا قتال شرقا الى عمق سيناء .

ومن السويس التى تنفســـت الحرية من خلال ملحمة الدم والبارود .. خرجت تفاصيل معركتها الخالدة التى كنت اتابعها فى شهر أكتوبر ١٩٧٣ .

كيف بدأت المعـــركة

بدأت معركة السويس اعتبارا من الساعات الـ ٢٤ الأخيرة من حرب أكتوبر فيما بين ٢١ و ٢٢ أكتوبر .. حيث زاد العدو من كثافة غاراته الجوية على المدينة الباسلة .. وكان يقصف أحياء السويس بصورة عشوائية للتاثير على الروح المعنوية للمدنيين .

وتحكى سجلات معركة السويس الكثير عن شجاعة وبطولات ابناء الشعب المصرى وقواته المسلحة اعتبارا من الساعة السادسة والدقيقة ٥٢ من مساء الاثنين ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى مرحلة قتال ما قبل النهاية كما يسميها العسكريون .. حيث القى العدو بكل ثقله فى آخر محاولة لانقاذ ماء وجهه وتحقيق أى مكاسب .. فقام بعملية الثغرة فى الدفرسوار مستهدفا فى نفس الوقت الوصول الى مدينة السويس واحتلالها وحصـــار الجيش الثالث الميدانى داخل سيناء .

الورقـــــة الرابحـــــة

كانت أهداف العدو ومحاولاته واضحة ، وهى احتلال مدينة السويس لكى يحصل على ورقة رابحة يساوم بها يوم وقف اطلاق النار واستغلالها دعائيا .. خاصة وان مدينة السويس من الموانى العالمية ذائعة الصيت فى العالم وسميت باسمها قناة السويس :

وعندما توقف اطلاق النار فى مساء الثانى والعشـــرين من اكتوبر .. لم يتوقف العدو لحظة واحـــدة عن الحركة .. وفى الساعات التالية تقدم من جنيفة شمالا الى الجنوب وله هدفان الأول الوصول الى السويس بأى صورة ومهما كانت التضحيات ، والثانى حصار الجيش الثالث فى نفس الوقت .

المدينـــة تســـتعد

واستعدت المدينة الباسلة لمواجهة العدو ، ونسى كل انسان فى المدينة اى شىء آخر الا حياة البلد وكرامتها .. ومرت الساعات ثقيلة رهيبة ، ووضعت خطة للدفاع عن السويس من أفراد الدفاع الشعبى والقوات المسلحة ومنظمة سيناء ، وتم تنظيم التعاون مع قوات الفرقة ١٩ التى قدمت الدعم بالأسلحة المضادة للدبابات ، واتخذ الدفاع عن المدينة صورة تحددت فى ٦ اتجاهات للدفاع عن المدينة وتدمير العدو .

أولاً : كلفت سرية حماية الشعب (المقاومة الشعبية) بواجب احتلال المشارف الشمالية للمدينة فى القطاع حد يمين الترعة الحلوة وحد يسار طريق الشـــلوفة خارج مركز مجهودها الرئيسى فى اتجاه- طريق الشـــلوفة ومنع العدو من دخول المدينة من هذا الاتجاه .

ثانيا : كلفت سرية مشاة ميكانيكية مدعمة بأسلحة مضـــادة للدبابات باحتلال المشارف الشمالية الغربية للمدينة حد يمين طريق الشلوفة داخل حد يسار تقاطع طريق مصر السويس مع طريق العوايد داخل مركزه .جهودها الرئيسى كأسبقية أولى على طريق مصر السويس وكاسبقية ثانية على طريق الشلوفة بغرض منع العدو من دخول المدينة من هذين الاتجاهين .

ثالثا : تم تشكيل ســرية من الوحدات الادارية التى لجأت للسويس من الدفرســوار لتكون احتياطى القطاع الشمــالى للدفاعات .

رابعا : كلفت كتيبة الدفاع الاقليمى والتى كانت احدى وحدات الفرقة ١٩ بمهمة الدفاع عن المدينة بعد عبور قواتنا لمنع العدو من دخول المدينة من اتجاه الغرب .

خامسا : كلف أفراد منظمة سيناء ومواطنون عاديون وأفراد من القوات المسلحة بتنظيم وتشكيل كمائن وزعت على طول الطريق الرئيسى المتقدم من المثلث الى داخل المدينة بغرض التعامل مع مدرعات العدو لتدميرها نهائيا وتكبيدها أكبر الخسائر .

سادسا : كلفت أطقم اقتناص الدبابات ووزعت على المواقع الهامة لدعم مواقع الدفاع وانتشر الشعب بجوار قواته المسلحة .

ولم يكن هناك وقت للخوف ، واستمر العمل طوال ليل ٢٣ اكتوبر استعدادا لقتال من نوع آخر .. قتال الحياة والموت .

وقامت الفرقة ١٩ شرق القناة بدفع سرية صواريخ مضــادة للدبابات الى غربى القناة لتحتل خط نيران شمال السويس بثمانية كيلومترات لملاقاة العدو المتجه للسويس على طريق المعــاهدة شرقى مطار الشلوفة ..

وضعت المدينة كلها فى حالة الدفاع وتوالت تمامات الاستعداد حتى كانت الساعة السادسة صباح ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى الســاعة الرابعة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ أبلغت قيادة الجيش الثالث القائد العسكرى العميد عادل اسلام بان العدو يرتد من الأدبية متجها للشمال ويخشى أن يدخل مدينة السويس أثناء ارتداده .

المحافظ يعلن فى فجر ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ بمسجد الشهداء أن السويس محاصرة والعدو يستعد لدخول السويس .. المطلوب أن يساهم كل مواطن بما يستطيع ويجب أن تضبط الأعصاب ويوجه الفكر لادارة المعركة .. واستعد كل فرد فى المدينة بكل انواع السلاح الممكنة لمواجهة العدو .

بـــــداية المعـــــركة

فى الساعة السادسة والنصف صباح ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ بدأ العدو يمهد لاقتحام مدينة السويس .. غارات طيران كثيفة .. قصف مدفعى من جميع الجهات .. دباباته تركز قصفها بوحشية .. توقف القصف .. وبدأ الهجوم الساعة العاشرة والنصف صباحا تقريبا .. تقدم العدو بكتيبتين مدرعتين ومشاة ميكانيكى محمل على مجنزرات ، واصلت احداها التقدم فى طريق الســـــماد — طريق السويس عند الكيلو ٩ طريق السويس القاهرة ، وواصلت التقدم شمال المحطة العسكرية بالمثلث متجهة الى طريق الشلوفة حيث اتخذت تشكيل الهجوم من شمال المدينة فى ثلاث مجموعات لمحاولة الاقتحام .

فى نفس الوقت تقدمت كتيبة ثانية على طـــــريق الزيتيات السويس حتى تقاطع طريق العوايد الزيتيات من اتجاه الزيتيات حيث تفرعت الى ثلاث مجموعات محاولة الاقتحام من الغرب الى الشرق .. الوسطى منها اتجهت للاقتحام فى مواجهة مواقع كتيبة الدفاع الاقليمى فتصدت لها ولم يكتمل الاختراق من هذا الاتجاه .

المحور الشمالى من هذا التقدم أمكنه الاختراق والتقدم من العوايد خاصة مدخل المدينة من اتجاه مساكن المثلث .. المدخل الرئيسى .. وتصدت لها القوات الموجودة هناك ولكنها لم تتمكن من صده .

واستطاع أن يحدث ثغرة ووصلت مدرعاته الى مشـــارف الشارع فى اتجاه كوبرى ترعة المغربى حيث تراجعت الى هذا الموقع عناصر من قوة حماية الشعب فى كفر أحمد عبده ، وتصدت له على كوبرى ترعة المغربى ودمرت للعدو دبابة بواسطة الملازم أول شهيد توفيق حسان ، وتمكن من قتل خمسة افراد للعدو بمفرده .

المدرعات تمكنت .ن التقدم فى شـــارع الجيش متجهة الى بورتوفيق ..

وكانت هذه هى الموجة الأولى من الاقتحام وكانت مكونة من ٤ دبابات من طراز باتون و ٦ عربات نصف جنزير وعربتين وكان اندفاع المدرعات سريعا وخاطفا .

محـــاولات الخـــداع

ولجأ الجيش (الشجاع) الى الخداع .. رفع أعلام المغرب على مدرعاته ، ويضـــع فى الدبابات والعربات دمى وهياكل .. ولكن المقاتلين اكتشفوا هذا الخداع وتعاملوا مع معداته على هذا الأساس .

وعند مزلقان محطة سكة حديد الأربعين كان المقاتل محمود عواد من منظمة سيناء فى كمين وضع هناك ، أطلق قذيفة آر . بى. . وحتى أصاب الدبابة ، ولكنها تمكنت من الاستمرار فى التقدم حتى مدخل بورتوفيق حيث اصطدمت بلغم فانسحبت هاربة الى اتجاه الزيتيات .

الموجـــة الثانيـــة

عند وصول الموجة الثانية تقدمتها دبابةسنتوريون ثقيلة تهدد بمدفعيتها ، وكان الفاصل بينها وبين باقى الدبابات حوالى ١٠٠ متر الى أن وصلت الى المنطقة أمام سينما مصر وهنا تصدى لها الكمين

الموجود فى هذه المنطقة ، وأمكن للشهيد ابراهيم محمد سليمان (من منظمة سيناء) أن يطلق قذيفة ار ب ج فأطاحت براس سائقها فاختل توازنها وتوقفت .

وهنا تمكن المقاتل محمود عواد (من منظمة سيناء) من التحرك السريع من موقع الكمين الذى كان يعمل فيه مستخدما سور السكة الحديد وانقض على الدبابة المصابة وقفز فوقها ، والقى بداخلها بقنبلة يدوية ، وكان افراد الطاقم قد فتحوا البرج فى محاولة للخروج تحت ستار نيران اسلحتهم الصغيرة ، ولكن لم يتمكنوا فقد اشتعلت الدبابة .

وتوقفت الموجة وقلت سرعة التقدم وهنا تمكن الكمين الموجود عند المزلقان البراجيلى (وفيه افراد من منظمة سيناء والقوات المسلحة ومدنيين) وتمكن فى هذه اللحظة الشهيد السيد أحمد ابو هاشم من تدمير الدبابة الأخيرة بالقنابل اليدوية فانحصرت الدبابات ولم تتمكن من التراجع لضيق الشارع .

وهنا تحولت سماء المدينة وأرضها الى جحيم من النيران ، اسلحة صغيرة وقنابل .. وهنا أيقن العدو انه دخل الى مصيدة لن يفلت منها .. انهالت النيران على دبابات العدو ومجنزراته وعرباته المدرعة .. جرى بعض الاسرائيليين ليحتمى فى الحارات والمنازل .. فوجدوا عشرات المواطنين وقد توحشوا انتقاما ، وكان الاسرائيليون يصرخون ولكن الثأر ونار الغضب صمت الآذان .. وتبعثرت اشلاء افراد العدو فى كل مكان .

وفى هذه الأثناء ورحى الانتقام وسيل الرصاص ينهمر .. تمكنت القوة التى كانت بالمدرعات التى توقفت أمام قسم الأربعين . تمكنت من اللجوء الى القسم واحتموا فيه .. واخذوا يدافعون عن

أنفســـهم وأصبح القسم هدفا للتحرير والتطهير .. لكن النيران المتدفقة عليه لا تتيح أقل فرصة لاقتحامه ، واستقر الرأى أنه سيتم تطهيره قبل آخر ضوء من هذا اليوم المشهود ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ .. فرضت الأحداث أن يحاصر القسم استعدادا لاقتحامه وتطهيره .

وقام الاسرائيليون الذين كانوا مازالوا فى القسم .. باخراج شرطى لابلاغ القيادة فى المدينة بأنهم يطلبون التسليم والابقاء على حياتهم ، وأصـــطحبه أحد أفراد منظمة سيناء وعرض الأمر على القيادة فى المدينة فوافقت على تسليم الاسرائيليين ، ولكن الشرطى لم يتمكن من العودة للقسم مطلقا .. فأدرك الاســـرائيليون أن نهايتهم قد اقتربت .. فطلبوا من قيادتهم باللاسلكى الضغط بالنيران على المدينة ليتمكنوا من الهرب .

وبدأت المدفعية تقصف المدينة وتحت ستر نيرانها دفع العدو بثلاثة دبابات وعربتين مدرعتين بهدف الوصول الى قسم الأربعين لانقاذ جنوده ، ولكنه كان منظرا فظيعا ورهيبا .. سائق العربة المجنزرة مالبث أن دخل المدينة مسرعا وشاهد النيران التى مازالت مشتعلة فى الدبابات والجثث الملقاة اشـــلاء مبعثرة فأدرك عنف المقاتلين . وصلابة شعب السويس .. فدار بالعربة حول نفسه مرتين وعاد بأقصى سرعة فى اتجاه المثلث هاربا ، وقد خشى أن يكون مصيره مثل الذين سبقوه ..

فلم يكن الصهاينة يتخيلون أن شعب السويس سيقاوم بهذه الشجاعة الخارقة .. فقد ظنوا أن المدينة خالية وليس بها اية دفاعات ، وظل أمل العدو هو تخليص أفراده الموجودين بالقسم .. وأدرك أن قصف المدينة بالنيران والصواريخ لم يعد يهز هذه المدينة أبدا .. وأدرك أن الاستيلاء عليها مغامرة خاسرة .

وكان عنف المقاومة وضيق الشوارع والمبانى الكثيرة يمثل عقبة أمام العدو .. وتسلل الاسرائيليون الباقون أحياء بقسم الأربعين ليلا الى منطقة الزراير غربى السويس عبر منطقة المقابر ، وادرك هذا رجال المقاومة الشعبية والقوات المسلحة ، وتمكنوا من اصابة ثلاثة منهم وهدأت طلقات البنادق والرشاشات حتى فجر اليوم التالى ٢٥ أكتوبر .

وفى صباح ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ بدأت الاستعدادات لتوزيع المؤن والخبز ، بعض المواطنين كانت أعمالهم وتجارتهم فى السلع الغذائية تبرعوا بما عندهم لاطعام الجرحى والجنود .

وفى ذلك الوقت قام الجيش الثالث الميدانى فى سيناء بنقل الكثير من الاسلحة والدبابات والذخائر الى المواقع الدفاعية فى المدينة ، ونظمت الشئون الادارية فى السويس بكثير من السرعة والحركة المحسوبة حيث وضعت خطة دفاع جديدة لتأمين المدينة ومواجهة العدو .

القتـــال حتى آخـــر رجـــل

وفى اليوم التالى ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ لجأ العدو الى أسلوب آخر لاقتحام المدينة حيث اتصل القائد الاسرائيلى من شركة السويس لتصنيع البترول يطلب من المحافظ تسلم المدينة فى خلال نصف ساعة والا فسوف تدكها الطائرات والمدفعية وسيأتى عاليها أسفلها .. وان المدينة لابد ان تسلم فليس بها مياه ولا كهرباء ولا تعيينات ، وان الدقيق يحترق وانه لا يوجد بالمدينة قوات ..

واتصل المحافظ بالقائد العسكرى ورفض الجميع فكرة التسليم .. وأن المدينة سوف تقاتل حتى آخر رجل وحتى آخر قطرة دم ..

فكيف يتم التسليم وقد كبدنا الاسرائيليين أمس هذه الخســـائر الجسيمة .. واليوم أوضاع الدفاع أكثر قوة والروح المعنوية عالية جــدا ..

وهنا بدأت القيادة فى تحســـين المواقع وتدعيمها فى كل قطاعات المدينة .. الجميع يعمل بحماس وبشجاعة .. وأذيع على المواطنين أن العدو يطالبنا بالتسليم ولكن لن نسلم .. سنقاوم .. سنحارب وسننتصر باذن الله .. سنقاوم الى آخر رجل .. اذاع الشيخ حافظ سلامة شعارات المقاومة الشـــعبية .. حتى آخر رجـــل ..

آخــــر محـــاولات العـــدو

وفى ظهر يوم السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ .. قام العدو بآخر محاولاته للتقدم نحو السويس حيث اســتخدم طريق شرق ترعة السويس (طريق القناة) مارا بالجبلايات فى محاولة لعزل رأس كوبرى الجيش الثالث فى الشرق عن مدينة السويس . فتصدت له مجموعة تنص الدبابات فى منطقة حوض الدرس ودمرت له ٣ دبابات وعربة نصـــف مجنزرة ، وكانت هذه آخر محاولاته لدخول السويس التى لم يقترب منها بعد ذلك .

وسجلات معركة السويس تذكر أن العدو حاول أول أيام عيد الفطر أن ينتقم .. فشن غارات جوية كثيفة ومتواصلة على المدينة .. وعلى قوات الجيش الثالث فى سيناء منذ ساعات الصباح الأولى حتى الغروب .. غير أنه لم ينجح فى تحقيق أهدافه ..

وفى اليوم التالى استمر العدو فى قصف المدينة برا وجوا ، وتمكنت المدينة من السيطرة على مشكلة التموين حيث تم وضـــع

نظام شديد القسوة يضمن وصول الغذاء لكل الموجودين فى المدينة، وعاش الناس بأقل قدر من الغذاء .

وفى يوم الثامن والعشرين من اكتوبر .. حاول العدو بعد وصول قوات الطوارىء الدولية .. التقدم نحو المدينة من طريق الزيتية .. غير أن كمين اقتناص الدبابات بالمنطقة اشـــتبك معه وعندما طلب قائد القوات الدولية وقف اطلاق النار رفض القائد المصرى الا بعد ان يفرج العدو عن المدنيين المحتجزين فى مسجد الشبان المسلمين والاستاد الرياضى .. ووافق العدو وتم وقف اطلاق النار .. وتم فى هذا اليوم تحديد أماكن ومواقع أفراد القوات الدولية بين المتحاربين .

الرجـــال وحصـــــار المائة اليوم

وفى الأيام التالية أعيد ترتيب الأوضاع الدفاعية داخل مدينة الســـــويس ، قام الجيش الثالث بتدعيمها بالأفراد والمعـــدات والأسلحة ، وحاول العدو شن حرب نفسية ضد أبناء السويس فالقى بكميات هائلة من المنشورات التى تدعو المدينة الى التسليم .. فأحرق ابناء السويس المنشورات فى الشوارع .

وفى أيام الحصار فيما بعد كانت الروح المعنوية فى المدينة الباسلة فى القمة .. وشن رجال المقاومة الشعبية ومنظمة سيناء وافراد القوات المسلحة حرب استنزاف يومية ضـــد العدو الذى أصبحت قواته داخل حصار لا يسمح له بالحركة او الخروج من مواقعه ، وانقلب حصار السويس الى حصار للعدو نفسه . وزادت خســـــائره وأصبح أفراده يحيطون انفسهم بحقول الالغام من كل جانب دفاعا عن أنفسهم .

وهكذا دخلت معركة السويس التاريخ مع المدن العظيمة فى تاريخ الحرب .. مثل ستالينجراد وبورسعيد .. ورقص أفراد الجيش الصهيونى (الشجاع) رقصات الفرح بالخروج من مصيدة السويس أحياء .. ورقص أبناء المدينة الباسلة رقصات النصر العظيم .

وفى صفحات بطولات أبناء الشعب المصرى فى مواجهة أعدائه كتبت بحروف من مداد الدم اسماء ابراهيم سليمان واحمد هاشم السيد وفايز حافظ وأشرف عبد الدايم بين اسماء الشهداء الى جانب زملائهم الذين استشهدوا خلال حرب الاستنزاف مصطفى أبو هاشم السيد وسعيد البشقلى .

وسجل التاريخ اسماء عدد من ابطال السويس يأتى فى المقدمة منهم محمود عواد ومحمد سرحان وأحمد العطيفى وعبد المنعم قناوى وفتحى عوض ومحمود طه وعبد المنعم خالد وحلمى شحاته ، وكلهم كانوا فى المقدمة حيث أذاقوا العدو مرارة الهزيمة فى معركة السويس الى جانب قواتهم المسلحة .. حيث سطروا جميعا ملحمة السويس الخالدة فى حرب اكتوبر .

الفصـــــل الثالث عشـــــر

مقـاتلون لوجــه الوطــن

فى الحرب لا يمكن أن يتساوى الانسان مع أسلحة الموت .. المدفع .. الدبابة .. الطائرة .. القنبلة .. الانسان من لحم ودم .. له قلب وعقل ومشاعر .. سلاح الموت مجرد آلة يستخدمها البشر لمحاربة أعدائهم من نفس الفصيلة . .

وفى لهيب المعركة يلتصق الانسان بسلاحه .. ينصهران تماما .. يصبح السلاح من يد الانسان لانه وسيلته للدفاع عن فى مواجهة عدوه الذى يبذل قصارى جهده وكل ما لديه لقتله والقضاء عليه .

والحرب وسيلة الحصول على الحق والأرض .. اذا فشلت الوسائل الأخرى فى استرداد هذا الحق .. والانسانية فى تاريخها دفعت الكثير فى ميادين القتال والانسان كان دائما وفى النهاية وقود الحروب كلها .. فالخسارة فى بنى الانسان أفدح واكبر ولا يمكن تعويضها .. بينما الخسارة فى الأسلحة مهما كان ثمنها لا تتساوى مع انسان تفتك به قنبلة .. أو رصاصة بندقية أو دانة مدفع لتنهى حياته وتقضى على أحلامه فى الحياة التى خلق من أجلها ..

غير أننا لابد وأن نفرق تماما بين من يحارب من أجل أرضه ووطنه وحياة أسرته وأولاده .. وبين من يحارب ليسرق أرضا

لا يملكها .. الفرق كبير جدا .. هذا الفرق رأيته بكثير من الوضوح فى ميادين القتال عند القناة وعلى أرض سيناء .. بين المقاتل المصرى الذى يحارب لاسترداد أرضه السليبة فى سيناء وبين عدوه الاسرائيلى الذى يغتصب الأرض ويقاتل للبقاء فيها .

وعندما تشتد المعارك .. وينشر الموت أجنحته السوداء على ميادين القتال .. فان الفرق بين قتال صاحب الأرض وسارقها يبدو اكثر وضوحا .. هنا تظهر بطولات الانسان فى الحرب .. وما نسميه بالصمود والشجاعة والنادرة والاقتحام بلا خوف . فالانسان هنا يصبح سيد آلة الموت ويقاتل عدوه ويسعى للتدمير بضمير مستريح ..

وخلال أيام الحرب فيما بين ظهر السادس من أكتوبر وغروب اليوم الثانى والعشرين .. اليوم السابع عشر للحرب .. رأيت بطولات جيش مصر .. بطولات الانسان المصرى الذى قاتل أشد ما يكون القتال واستشهد على أروع ما يكون الاستشهاد .. من أجل تحرير أرضه .. كان مقاتلا جسورا سواء كان خلف المدفع وداخل الدبابة .. وهو يحمل الأسلحة الأتوماتيكية الصغيرة أو القنابل اليدوية ويتصدى بها للدبابات قلاع الموت المتحركة فى أى حرب .. أو كان ينقض بطائرته على مواقع العدو أو يقاتل طائرات العدو فى عنان السماء ..

وحرصت على تسجيل كل ما رأيت أو سمعت من بطولات رجال مصر فى تلك الحرب .. فقد كانت قصص الشجاعة والبطولة النادرة بالنسبة لى كأنها سيمفونيات عذبة تخفف عن نفسى المكدودة آلام الحرب وعذابات سنين الانتظار فى جبهة القتال .. والحياة بعيدا عن أسرتى كل تلك السنوات العجاف .

وبطولات قوات جيش النيل ظهرت فى اللحظات الأولى للعبور الى سيناء .. ولم تتوقف مشاهدها كل ايام الحرب وحتى لحظات وقف القتال مســـاء الاثنين ٢٢ أكتوبر وما بعدها .. غير أن ما سجلته أو سمعته أو شاركت فيه ليس هو كل ما حدث .. انها اقاصيص قليلة ترسم لنا صورة مما كان يجرى على أرض المعارك .. ذلك أن بطولات أبناء النيل فى تلك الحرب لا يمكن أن تتسع لها تلك الصفحات القليلة من اليوميات .. انها تحتاج وحـــدها الى عدة مجلدات .. فالانسان هو سيد الحرب وصـــانع البطولة .. والشجاعة ليست المدفع أو الدبابة .. انه الانسان ، والاسماء هنا ليست شديدة الاهمية سواء كان الاسم محمد أو أحمد أو عبد الرحمن .. أو كان خيرى أو حنا أو شنودة .. وسواء مات واستشهد فى ميادين القتال .. أو عاش ليروى ما جرى .. فان الكل ولدوا على أرض مصر وقاتلوا من أجل مصر وشرفها .. واستشهدوا ايضا على نفس الأرض .. أرض مصر فى سيناء ..

على أرض سيناء ومن بين وحداتنا المدرعة المتقدمة فى قوة وثقة وفى اتجاه خط الدفاع الثانى للعدو على بعد ٢٠ كيلومترا من الضفة الشرقية للقناة .. كانت مجموعة هذا المقاتل ترد على هجمات العدو المضادة بأقصى العنف .. ويسقط القائد .. استشهد فى مقدمة الرجال .. وتولى مساعده القيادة خلال المعركة .. وتقول السجلات انه استطاع السيطرة على الموقف .. وبايمان الرجال وارتفاع الروح المعنوية استطاعوا تنفيذ مهامهم القتالية بنجاح تام . وحافظوا على المعدات ورغم ضراوة المعارك لم تحدث خسائر فى الارواح طوال أربعة ايام .. وحكى لى مساعده قصة الأيام المجيدة . فى ذلك اليوم ١٤ أكتوبر انتابنى حزن شديد على قائدى .. كنت احبه وكان كل الرجال فى المجموعة يحبونه .. كان نموذجا للقائد المصرى العسكرى كان دائما فى المقدمة وخلال المعارك التى قادها

خلال الأسـبوع الأول للمعارك .. تعلمنا منه الكثير .. وعندما استشهد كانت مهمتى صعبة للغاية .. كانت المعركة مستمرة بعنف شديد وكنا نرد على الهجوم المضاد للعدو .. وقلت لزملائى فى مجموعة خالد بن الوليد .. ان قائدنا استشهد وهو يقاتل العدو فى بطولة نادرة .. وعلينا أن نحذو حذوه لقد كتب علينا القتال فى سبيل الله والوطن وعلينا أن ننتقم لقائدنا ولكل الشهداء .. أن العدو الذى يبذل أقصى ما لديه فى الهجوم المضاد فى موقف سيىء جدا .. ولابد أن نوجه له أقصى الضربات .. وبدأنا نهاجم العدو من جديد .. وقاتل الرجال فى هذ االيوم قتالا ضاريا عنيفا ونجحنا فى اتمام المهمة التى كلفتنا بها القيادة ..

المقاتل مازال يحكى .. معارك يوم ١٤ أكتوبر وخلال أيام ١٥ و ١٦ و ١٧ أكتوبر كلفت بتدمير كل محاولات العدو المتكررة للاختراق فى اتجاه الاسماعيلية .. كان من بين أسباب نجاحنا ادراك كل الأفراد لأسلوب العدو القتالى .. هو أسلوب تدربوا عليه واستوعبوه جيدا ..

اننى أشعر بفخر شديد بهذه الأيام الأربعة والتى واجهنا العدو خلالها طوال ساعات الليل والنهار بالدبابات والمدرعات ولم ننجح فقط فى تدمير هجمات العدو وانما حافظنا على معداتنا ولم تحدث فى جانبنا خسائر فى الأرواح .

ان المجموعة استطاعت ان تحتل خطا جيدا غير متوقع من جانب العدو والذى فوجىء ولم يستطع أن يحدث فى قواتنا أى خسائر نظرا لقدرة مدرعاتنا فى استخدام الأرض وهى منطقة تقع فى جنوب شرق الاسماعيلية بالقطاع الأوسط .. ولهذا نجحت قواتنا فى القتال المستمر .. ومواجهة هجمات العدو لمدة أربعة أيام بدون خسائر فى الأرواح ..

ليس هذا فقط . بل أن الرجال وأجبوا محاولة العدو لاستخدام الصواريخ المضادة للدبابات بأن أوقعوا العدو فى مصيدة ودمرت له كل مواقع هذه الصواريخ .. واضـــــطر العدو الى القيام بهجوم بمجموعة كبيرة من الدبابات والمدرعات فى محاولة لتطويق القوات . الا ان دبابات مجموعاتنا تمكنت من اصطياد ١٣ دبابة دمرتها تدميراً كاملا .. ولم يستطع العدو التقدم فى هذه المنطقة لكثافة النيران التى توجهها قواتنا المدرعة من مواقعها الجيدة .

كلفت من صباح ١٦ أكتوبر وحتى مساء ٢٢ أكتوبر بالوقوف على الخط الأمامى من الأرض التى حررتها قواتنا فى عمق سيناء . لنمنع وندمر كل محاولة يقوم بها العدو فى اتجاه الضفة الشرقية للقناة ، ونجحت قواتنا ـــ والحديث مازال لمساعد القائد ـــ وخلال هذه الأيام الأربعة الحاسمة فى معارك الدبابات بالقطاع الأوسط من الجبهة .. استطعنا أن نحتل خطا أماميا جيدا وفاجأنا العدو مرة أخرى .. وصمد الرجال أمام الهجوم الكبير واليائس لقوات العدو .. وعلى الأرض التى حددناها لاصـــــطياد دباباته .. توالى تدمير الدبابات والمدرعات الاسرائيلية .. فى مساء الثانى والعشرين من أكتوبر كان مجموع ما دمرته المجموعة ٢٥ دبابة ومجموعة من العربات المدرعة .. وعربات الصواريخ ..

تقارير القيادةالميدانية تقول ان هذه القوة تعرضت أثناء الهجوم على اكبر مواقع العدو فى خط الدفاع الثانى على بعد ٣ كيلومترات الى الشرق من القناة .. النيران كثيفة مركزة من جانب قوات العدو ومع ذلك اصرت على التقدم .. أصر الرجال على الوصول الى موقع العدو وتدميره .. لأن الموقع يعتبر من المواقع الاستراتيجية التى تتحكم فى مجموعة من الطرق والممرات الفرعية فى القطاع الأوسط من سيناء وتقول التقارير الميدانية ان رجال مجموعات خالد بن الوليد

قاتلت قتالا ضاريا وكان الجميع يعرفون أن اختراق قوات العدو تعنى سقوط الكثير من الشهداء ومع ذلك استمروا فى القتال حتى حققوا المهمة وتمكنوا من الوصول الى مواقع العدو وتدميره .

فى يوميات هذا المقاتل الكثير من بطولات الرجال الذين قاتلوا معه والذين شاركوا فى تحقيق النصر على العدو .. وأيضا قصص بطولات الشهداء الذين قاتلوا العدو وروت دماؤهم رمال سيناء .. أنه يذكر زميله الذى أصر على أن يكون أول من يصل الى موقع العدو .. ونجح فى قذف الموقع بضربة مباشرة واستشهد .. ومقاتل آخر شارك فى تدمير عدد من دبابات العدو واستشهد .. ومقاتل قاتل أربعة أيام بصورة متواصلة ودمر مواقع الصواريخ المضادة للدبابات التى وضعها العدو ليمنع دباباتنا من التقدم .. واستطاع أن يمهد الطريق أمام القوات واستشهد بعد أن أدى واجبه كأروع ما يكون الأداء ..

وهو يذكر بعد ذلك كله قائده الذى استشهد وهو يقاتل فى مقدمة الرجال يوم ١٤ أكتوبر ويقول تعلمنا منه الكثير .. لقد قاتلنا الى جانبه لمدة أسبوع ولن أنسى يوم ٦ أكتوبر .. فى ظهر ذلك اليوم قدم قائدنا مع المقاتلين الصائمين وبعد الصلاة طلب منا أن ندعو الله أن يحقق لنا النصر أو الشهادة .

وسمعت قصة أخرى للمقاتلين فى دورية الصاعقة المصرية التى قطعت طريق (بيلوزة القديم) الفرما فى أقصى الشمال الغربى لسيناء خلال الأيام الأربعة الأولى للمعركة واستطاعت أن تمنع كل انواع الامداد والدعم عن مواقع العدو الحصينة شرق بور فؤاد .. فقد عاد قائد الصاعقة والرجال وبقيت مجموعة صغيرة جدا لتغطيتهم وتعطيل أى محاولة من جانب مواقع بور فؤاد لضربهم .

كانت المجموعة من فردين فقط وظلا يتبادلان اطلاق النار مع الموقع الاسرائيلى حتى ابتعد القائد والرجال بما فيه الكفاية وسلكا طريقا آخر لتضليل العدو .. غير أنهما عندما وصلا الى أقرب نقطة لبور فؤاد كانا فى حالة لا تسمح لهما بأى حركة .. وناما داخل كشك صاج .. واستيقظا على أصوات تتكلم العبرية واكتشفا انهما داخل أحد مواقع العدو فى بور فؤاد ..

نزلا سريعا الى المياه بأقصى قدر من تمالك الأعصاب وسبحا تحت الماء وهما يتنفسان كلما شعر أحدهما انه بحاجة للتنفس حتى ابتعدا الى مسافة تزيد عن النصف كيلومتر وأصبحا قريبين من الموقع المصرى المقابل .. وبعيدين عن مدى نقط الملاحظة الاسرائيلية وبدآ يسبحان فوق سطح المياه .. غير أن طائرات الهليوكوبتر الاسرائيلية كانت تحوم المنطقة بحثا عن الطيارين الاسرائيليين اللذين أصيبت طائراتهما فى معارك التاســـــع من أكتوبر عند القنطرة وبور فؤاد واشتبكت المدفعية المصرية مع طائرات العدو .. واستمر المقاتلان المصريان يسبحان حتى اقتربا من الموقع المصرى وأعطيا اشارات خاصة .. وبعد وقت قصير كانا قد أصبحا داخل الموقع المصرى .. بعد أن انجزامهمة شاقة كانت تحتاج الى فصيلة من الرجال .

وقصة المقاتل الذى زحف فوق الأرض حتى لايراه العدو المتقدم بطابور دبابات ومدرعات بعد أن نفذت ذخيرته وكان ضمن مجموعة من رجال الصاعقة الذين أوقفوا تقدم العدو الذى يستهدف ضرب رؤوس الجسور المصرية قبل أن تدعم .. وظل هذا المقاتل يزحف ويزحف حتى أصبح يسد بجســـــده طريق تقدم أولى دبابات العدو ووضع فوق ظهره لغما مضادا للدبابات وتمر الدبابة وتنفجر فى لحظات فى موقع أمامى من مواقع قواتنا المتقدمة فى سيناء بدأت

أستمع ألى بطل منهم .. وجه مصرى أصيل نموذج لآلاف الرجال الذين قاتلوا فوق الأرض المقدسة .. انه برتبة مقدم .. اشترك فى معركة العبور وعدد من المعارك العنيفة التى دارت على أرض سيناء .. وفى كلمات بسيطة وصوت هادىء عميق قال لى سأقول لك بكل الصدق .. ان بطولات جنودنا ليست جديدة فى الشجـــــاعة كانت ومازالت ابرز صفات المقاتل المصرى من آلاف السنين .. وروى لى قصة واحدة عن عدد من رجاله جنود المشاة .. كنا فى بداية الأسبوع الثانى من المعركة نضرب العدو فى العمق على خط الدفاع الثانى فى سيناء .. هناك توجد مواقع حصينة للعدو تعادل خط بارليف .. ومن بين رجالنا كانت هناك مجموعة من أربعة جنود من رجال المشاة .. تواجه احدى النقاط القريبة للعدو وهى نقطة مدعمة بالدبابات والأسلحة الكثيرة .. ومع ذلك دخل الطاقم المصرى المكون من أربعة جنود فى معركة رهيبة مع دبابات العدو وقام الطاقم بتدمير دبابتين للعدو بالقنابل المضادة للدبابات ..

هنا قامت مدفعية العدو واســـــلحته فى النقطة القوية بفتح نيرانها على جنودنا الأربعة بكثافة وفى نفس الوقت دخلت ٣ دبابات أخرى للعدو فى المعركة وحاصرت الموقع الصغير من كل مكان .. وخرجت النيران الهائلة من دبابات العدو من مواسيرها الثلاث على الجنود الأربعة واستشهد ٣ من جنودنا وجرح الرابع ومع ذلك ظل يقاتل ودمر دبابتين للعدو وظل جريحا فى موقعه .. كانت الاصابة فى قدمه واستمر فى موقعه ٣ أيام كاملة .. دون أن يجرؤ أحد من قوات العدو المحصنة داخل الدشم والدبابات عل ىاقتحام الموقع الصغير الذى لم يكن داخله سوى البطل الوحيد الجريح والذى لم يكن لديه بعد المعركة سوى سلاحه الشخصى واقول لك أن هذا الجندى نقل للمستشفى وتم علاجه وعاد من جديد لأرض المعركة وهذه صورة ستظل محفورة فى نفسى الى الأبد .

قصص بطولات الرجال على أرض سيناء كثيرة لا حصر لها .

قال لى مقاتل شاب برتبة ملازم اشـــــترك فى معارك الدبابات أن زميله وهو ضابط شاب كان يقود قواته من المشاة خلال معارك سيناء واصيب وقطعت يده ، وحاول بعض المقاتلين منعه من التقدم واعادته للعلاج .. ولكنه رفض وظل يتقدم قواته صـــارخا فيهم تقدموا تقدموا .. لا تتوقفوا قاتلوا بقوة .. وتمكن رجاله فى هذه المعركة من تدمير ١١ دبابة للعدو بالصواريخ المضادة للدبابات وظل هذا الضابط الشاب الى جوار رجاله والدماء تنزف من يده حتى سقط شهيدا على أرض المعركة .

وسأحكى لك اكثر من مشهد مما رأيته بنفسى وشاركت فيه .. عندما بدأت فى عملية العبور .. تقدم رجالنا من المهندسين لفتح الثغرات فى مواجهة نقطة قوية للعدو فى القطاع الشـــــمالى .. ووصل احد جنود المهندسين بمفرده الى أقرب مسافة من نقطة العدو القوية فوجد أن هناك موقع رشاشات لم يدمر داخل دشم العدو .. وتسلل جندى المهندسين حتى وصل الى مسافة مترين من مكان العدو والقى على الموقع قنبلة يدوية ودمر الرشاشات وقتل جنود العدو .. هذه مبادرة من رجال المهندسين وهو جندى مصرى ليس دوره ضرب المواقع ولكنه أراد حماية زملائه من قوات العبور من بقايا رشاشات العدو التى كانت ستصيب رجال المشاة .. وأصيب هذا البطل ولكنه قام بعمل بطولى اعتمد فيه على تقديره الشخصى حتى وان كان ما يقوم به ليس من اختصاصه .. ويضحك المقاتل وهو يقول .. لقد اكتشفنا خلال حرب اكتوبر ان كل جنود العدو لقنوا عدة كلمات بالعربية لاستخدامها عند اللزوم وهى كلمات مثل .. لا تقتلنى يامصرى .. أنا أستسلم يا مصـــــرى .. ارحمنى يامصرى أنا عندى أولاد .. كما سمعنا الكثير من الكلمات الأخرى التى يقولها جنود العدو من اليهود الشرقيين . .مثل أنا يهودى

من اليمن أو العراق أو المغرب .. أريد أن أهرب من أسرائيل لولا أن أسرتى هناك .. وآخر ما سمعته كان من جندى اسرائيلى من أصل مغربى .. قال لى أريد البقاء فى مصـــــر ولكن أولادى فى اسرائيل لقد خدعونا طول الوقت .. وهم يقدموننا وقودا للحرب فى خطتهم التوسعية للاستيلاء على أرض العرب ..

فى القنطرة شرق جلست استمع اليه .. مقاتل أسمر الوجه مصرى الملامح يرتسم على وجهه الايمان العميق .. كان يؤدى صلاة العصر قبل أن يبدأ حديثى معه .. وكنت قد سمعت عنه الكثير من أفواه المقاتلين فى شمال الجبهة .. وكيف كان يقف أثناء الغارات الجوية على القنطرة شــــرق بعد عبور قواتنا .. يدير المعركة فى الخلاء تاركا موقعه معرضا نفسه للموت طول الوقت .. وكان يطمئن على كل مقاتل من جنوده خلال المعارك .. وقال له ضابط شاب أنت تعرض نفسك للموت دائما .. وابتسم وهو يرد عليه .. العمر واحد .. لن أموت وعمرى ينقص دقيقة واحدة اننا نقاتل عدو الله وتأكد أننى سأشهد هزيمة العدو ..

أحد قادة المشاة الذين اشتركوا فى العبور العظيم قال لى .. ان رجال المشاة فى مصر أثبتوا فى معركة العبور ومعارك سيناء أنه لا يمكن أن نحسم المعركة فى أى حرب بدون رجال المشاة ، قال أيضا ان لدينا سجلا مشرفا لرجال المشاة الذين اشتركوا فى حرب اكتوبر .. وهناك المئات من قصص بطولات هؤلاء الرجال .. لقد قاموا بصد دبابات العدو وتأمين دباباتنا خلال المعارك وأثبتوا أن المقاتل المصرى من أقوى المقاتلين فى العالم كله .. وأكثرهم قدرة على الصبر وتحمل المشاق والصعوبات على أرض المعارك .

ومرة ثانية فرضت المقارنة بين المقاتل المصـــــرى والجندى الاسرائيلى نفسها على أحاديثى مع المقاتلين فى سيناء .. قال مقاتل

مصرى برتبة مقدم .. كنت اعرف قدرة المقاتل المصرى واضـــع الجندى الاسرائيلى فى حجمه الحقيقى .. وعندما بدأت المعركة ظهرت الحقيقة واضحة على أرض المواجهة .. لا يمكن المقارنة بين رجالنا وجنود العدو ..

وفى موقع آخر من مواقعنا فى سيناء استمعت الى العشرات من قصص البطولة .. بطولات رجال الدبابات ورجال المشـــاة الميكانيكية .. قال لى مقاتل من ضباط المشاة .. أن أحد جنود المشاة استطاع خلال معارك الدبابات العنيفة أن يدمر بمفرده ١٨ دبابة خلال ٧ أيام بالصواريخ المضادة للدبابات وجاء الى موقعنا قائد الفرقة المدرعة ليصـــافح المقاتل وهو مجند .. وأراد قائد المدرعات تكريمه ولم يكن أمامه شيء يقدمه للمقاتل وهنا أخرج قائد المدرعات ساعته وقدمها هدية لمقاتل المشاة وحاول المقاتل اعادة الساعة لقائده مكتفيا بتقديره وقال لقد أديت واجبى مثل آلاف الرجال ولكن قائد المدرعات أصر على اهدائه ساعته .. وقال ليس عندى الآن شيء ثمين سوى هذه الساعة أقدمها لك بكل فخر ..

وتسمع قصة المقاتل الذى أصيب فى ساقه ولكنه رفض أن يغادر موقعه وطلب تضميد جراحه وواصل الاشتراك فى القتال ..

مقاتل آخر اشترك فى تدمير ٣ مدرعات للعدو .. وعندما أصيب موقعه انتقل الى موقع آخر ليواصـــل القتال الى جانب زملائه .

ومقاتل اندفع من موقعه ليعوق تقدم احدى دبابات العدو وقتل من فيها من الجنود ..

ملحمة رائعة من ملاحم البطولة كتبها أبناء مصر الآن فى اعنف معارك الصحراء .. وفى مواجهة عدو يدفع بكل ما لديه فى معركة الحياة أو الموت على أرض سيناء ..

ومقاتل آخر .. كان خلال احدى معارك الدبابات فى موقعه المضاد للدبابات ، وشاهد ٣ دبابات للعدو .. فأطلق قذيفة على الدبابة الأولى فدمرها .. وأسرعت الدبابة الثانية فى اتجاه موقعه لتدميره والمرور على جسد المقاتل .. فأسرع وضربها بمقذوف صاروخى آخر .. فأشعل فيها النار .. وكانت الدبابة الثالثة قد أصبحت خلفه وتقدمت سريعا الى موقعه .. ولم يكن لديه صواريخ مضادة .. سقط فى قاع الموقع .. مرت الدبابة فوق الموقع وانهالت الرمال على جسد المقاتل البطل .. لكنه بقى حيا وخرج من بين الرمال .. ولم يتوقف عن القتال .. وأمسك بقنبلة فى يده وأسرع خلف الدبابة التى كانت تسير فى الاتجاه الآخر .. وركب الدبابة .. وبدأ يدق على برج الدبابة بيده .. وفى نفس الوقت شاهدته دبابة رابعة بدأت توجه نيران الرشاشات فى محاولة لقتل مقاتل المشاة المصرى .. وهنا فتح قائد الدبابة الاسرائيلية الثالثة برج الدبابة .. فأسرع المقاتل المصرى بالقاء القنبلة داخل البرج وأغلقه سريعا وقفز بعيدا .. وانفجرت الدبابة .

مقاتل آخر أصيبت دبابته خلال المعارك التصادمية .. فلم يتركها .. وتقدم بها بثبات وحاصر دبابة العدو التى أصابته .. واصطدم بها بعنف وأشعل فيها النار .. وانفجر برج دبابة العدو وقتل أفرادها .. ولم يرض هذا البطل أن يترك الدبابة التى أصابته تهرب بمن فيها ..

ومقاتل من قادة الدبابات .. كان فى مهمة لضرب أحد مواقع العدو أثناء الليل .. وشاهد دبابة للعدو مختفية وراء تل الرمال .. وبدأت تستعد لضرب دباباتنا المتقدمة من الخلف .. وأسرع هذا المقاتل وضرب الدبابة الاسرائيلية عدة قنابل .. فانفجرت واستمر مع زملائه .. وبعد اتمام المهمة المكلفين بها .. وفى طريق العودة

اشتبكت القوة المصرية مع وحدة مدرعة للعدو .. واصيب هذا المقاتل .. لكنه استمر يقاتل حتى عاد لموقعه ونقل للمستشفى ..

مقاتل من رجال الدبابات .. واثناء احدى الغارات الجوية .. كانت طائرات العدو تطير على ارتفاعات منخفضة لضرب مواقعنا . فقام هذا المقاتل بتوجيه نيران الدبابة الى الطائرة بكثافة شديدة واستطاع أن يصيب الطائرة .. وحاول الطيار الهرب بالطائرة بعيدا عن المواقع المصرية .. ولكن الطائرة سقطت .. وارتطمت بالأرض واشتعلت فيها النيران وقتل قائدها ..

قال لى مقاتل جريح .. لقد عدت من الجبهة داخل سيارة كانت تقل عددا من أسرى العدو الذين وقعوا فى يد قواتنا أمس .. وكنت سعيدا وحزينا فى وقت واحد .. سعيدا لأننى رأيت الجنود اليهود وهم لا يستطيعون مواصلة القتال أمامنا ويقعون فى الأسر فى كل يوم .. وكنت حزينا لاننى أصبت أثناء القتال ولم أستمر فى قتال العدو .

وحكى لى مقاتل من أبطال الدبابات ان معارك الدبابات التى دارت يوم الاثنين فى القطاع الأوسط كانت عنيفة وبالغة الضراوة .. وبلغ من عنف المعركة أن عددا من الدبابات الإسرائيلية اشتبكت مع بعضها البعض فى أثناء القتال ..

وقال لى مقاتل .. لقد رأيت دبابة للعدو تصطدم بدبابة أخرى .. وفى أثناء ذلك أصابت مدفعيتنا الدبابتين فدمرتهما ..

وقال لى مقاتل شاب من رجال المدفعية ان هناك المئات من المقاتلين ظلوا يقاتلون ويوجهون نيران المدفعية على مواقع العدو حتى احترقت مواسير المدافع ..

وهناك الكثير من بطولات رجال البحرية من بينهم قائد المعركة البحرية التى دارت يومى ٨ و ٩ أكتوبر وهى المعركة التى تحدثت عنها طويلا الصحف والاذاعات الأجنبية باعتبارها أول معركة بحرية من نوعها فى العالم حيث تمت مواجهة فعلية بين اللنشات المصرية والزوارق الاسرائيلية فى عرض البحر وكان القصف بين الطرفين بالصواريخ الموجهة مباشرة ووجها لوجه ، وشـــهد خبراء العالم العسكريين بكفاءة المقاتل المصرى بعد هذه المعركة البحرية وكان فى انتظار قائد المعركة ورجاله الفريق فؤاد ذكرى قائد القوات البحرية وكان يحمل برقية من الفريق أول أحمد اسماعيل رحمه الله يهنىء فيها أبطال لنشات الصواريخ فى المعركة بانتصارهم واغراق أربعة لنشات للعدو من طراز سعر .

والمقاتل الذى دمر للعدو ٢٩ دبابة منها دبابة عساف ياجورى قائد اللواء الاسرائيلى المدرع ١٩٠ وكان قائده فى المعركة الرائد شهيد (صلاح حواش) ، وكان قد اشترك يوم ١٥ اكتوبر فى صد هجوم مدرع للعدو فى منطقة وادى النخيل وتمكن من تدمير ٦ دبابات ..

ولدى المئاتمن قصص وحكايات الشجاعة والبطولات لأبناء النيل فى ميادين القتال عند القناة وسيناء .. واذا كانت الحروب تكسب فى القلوب أولا .. فان المقاتل المصرى صاحب الأرض .. كسب الحرب من الدقيقة الأولى ..

رقم الايداع ١٩٩٤/١١٥٥٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4232 — 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٢٥ قرشـــا